الضفيرة السوداء

مطبوعات مكتبة مصر

الضفيرة السوداء

تأليف
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

شمعة على الطريق

رأيت سؤالا حائرا على وجهك قبل أن نفترق — يا سيدتى — فلم أشأ أن أجيب عنه . فتركت لك الفرصة لكى تتهمينى بالرقة التى تبلغ حد عدم الاحتمال . وكان السؤال الحائر على ملامحك ليلتئذ يقول لى : « لماذا كل هذا الحزن على وجهك العجوز بعد أن عاش عمره وقضى وطره وأدى رسالته . ورأى حفيده — الذى هو أنا — فى الخامسة والعشرين من عمره ؟ » .

وكان من الممكن قبل أن أعود إلى مقر عملى فى الإسكندرية وأتركك فى القاهرة أن أقول لك مشافهة كل هذا الذى أخطه إليك الآن ، لكن كثيرًا من الناس — وأنا من هذا الكثير — يجيدون شرح مشكلاتهم لمن يطلبون منهم حلها إذا لم يكونوا أمامهم وجها لوجه . لأن البديهة لا تسعفنى ، والمسألة لا تخصنى وحدى بل تخصنى أنا وأنت ما دمنا قد وضعنا أقدامنا على رأس الطريق الذى سيقودنا حتما إلى الحياة الزوجية المشتركة .

لقد عشت مع جدى من عشر سنوات فى مسكن صغير فى ضاحية هادئة ، ولا أذكر الليلة الأولى التى دخلت فيها إلى مسكن جدى . وأنا فى حوالى الرابعة عشرة من عمرى يتبعنى رجل يحمل حقيبة كبيرة فيها ملابسى وأدواتى . وكنا فى أواخر الصيف والوقت عصر وجدى مستلق على كرسى طويل من القماش فى حديقة ضيقة المساحة على هيئة شريط تقع أمام سلم السلاملك . وابتسم لى ابتسامة عريضة ملأت خده بالتجاعيد ، وجذبنى إليه فأحسست ارتعاشة يده وسرعة أنفاسه التى لامست وجهى ، وقال لى بعد ذلك : « ها أنت ذا يا بنى عدت إلى والد الكل ... أنا أصل الشجرة وظلى



كان يقص على من ذكريات شبابه
أشياء أشبه بما أقرأ فى كتب التاريخ

يا بنى — حتى على ضعفى — أغزر من ظل الجميع » . ثم نادى على خادمة كبيرة كانت تقوم بشئون البيت ، وأمرها أن تدخلنى الغرفة التى هيأها لى لأرى ماذا أعده لى والدى الأكبر . لكننى على الرغم من كل ما رأيت من أسباب الراحة ظللت أبكى فى حجرتى طول الليل ، وأشعل النور وأطفئه ، وتحوم فراشة ضالة حول المصباح المعلق كلما أوقدته ، فأنظر إلى حيرتها وأنا دامع العين ، وسعال جدى يتناهى إلى سمعى من الحجرة الأخرى .

و لم أكن مقدرا أن هذا الرجل سيقوم على أسر قلبى وربط حياتى بحياته على هذه الطريقة .. ففى أصيل اليوم الثانى لبس حلته وتناول عصاه وأمسك بيدى وقال بلهجة مرحة حنون :

— تعال مع جدك يا بنى لكى يلين أعصاب رجليه فى نزهة قصيرة ..

وخرجنا معا ، فأخذ يقص على من ذكريات شبابه — ونحن سائران — أشياء أشبه بما أقرؤه فى كتب التاريخ . وشيئا فشيئا تطرق بنا الحديث إلى سبب ضمى إليه ، فتبرأت من كل التهم التى قصها على وإن كان معظمها صحيح ، والتى بلغته بطبيعة الحال على لسان أبى الذى كان قد تزوج امرأة غير أمى منذ زمن ، وأنجب منها إخوة لى حاولت أن أحبهم بكل ما أستطيع .

ولست أريد يا صديقى أن أحدثك عن تفاصيل حياتى فى بيت أبى حتى بلوغى الرابعة عشرة ، لأن مثل هذا اللون من الحياة يكاد يكون عند كل القلوب واضح المعالم وإن غطى بشىء من الضباب،فالذى لا شك فيه أن أبى كان يحبنى ، وأن حبه لى كان ينتج رحمة أو قسوة حسب الظروف والأحوال التى تظلل بيتا هذه حاله . لست أريد أن أحدثك عن تفاصيل حياتى هنالك ، ولكنى أريد أن أحدثك عن تفاصيل حياة أخرى ... حياة أبى مع أمى قبل أن يفترقا ... أيام كانا فى بيت مع ابنهما الوحيد . فلما نشب

الخلاف بينهما لم يذكرا فى لحظات الغضب أنهما يعبثان بالسلاح ببلاهة كثيرا ما تتسبب فى قتل الأبرياء . وكان أساس النزاع بينهما ميراث ضئيل عند أبويهما اللذين كانا على قيد الحياة . ثم تفاقم الخلاف بالحركة كما تتكاثر رغوة الصابون ، وتعاون أهل أمى مع أمى فى إشعال النار ، وركب أبى رأسه ، وتبودلت الاتهامات حتى افترق الزوجان وخرجت أمى من البيت .

وكنت أراها أيام كنت معها فى بيت أهلها تبكى كلما انفردت بنفسها ، وكانت تصعد فى الشتاء إلى سطوح البيت بحجة أنها تتمتع بالشمس ، ثم تنزوى فى أحد الأركان وتذرف الدموع فى صمت ، فألوذ بها وأقبلها فتلتقط شفتاى دمعها المالح . حتى إذا ما شاءت الظروف وسمعت أمى وقع أقدام جدتى قامت إلى السور ونظرت إلى الحارة لتوارى وجهها عن أمها .

بعد مرور عامين — يا سيدتى — بلغت سبع سنوات من العمر ، وفى ليلة شاتية باردة كثيرة الأوحال . وبينما نحن على العشاء فى صالة الشقة ، رأيت أمى تتلفت نحو والدها فى خوف بعدما دخل من الباب وشرار الغضب يتطاير من عينيه ، وكان يخلع حذاءه الذى لوثه المطر عند باب الشقة قبل أن يدلف إلى الداخل . وسمعته يقول موجها الكلام إلى أمى بحدة شديدة رفع معها صوته :

— لقد انتهى الأمر يا سيدتى ... نعم انتهى الأمر ... ماذا كنت تنتظرين منه إلا هذا ... إننى أعرف الناس بخصال أمثاله ... لقد تزوج ليلة البارحة وانتهى الأمر .

وكفت أمى عن الأكل وعضت شفتها ولم تستطع أن تقوم عن المائدة وأخذت أسأل نفسى فى سرى : « وهل زواج الناس يحزن الناس ؟ بالعكس ، إن الناس يفرحون » . وذلك لأننى لم أكن قد تبينت بعد أنهم يتحدثون عن زواج أبى بامرأة أخرى بعد أن فارقته أمى . ولما دخلنا إلى فراشنا

تعمدت أمي أن تجعل الحجرة أحلك ظلاما من كل ليلة ، لكن همهمة بكائها ظلت تصل إلى سمعي طول الليل حتى أرقت ، وسهرت أسأل نفسي ولا أستطيع أن أسأل أحدا : « إذا كان هذا الذى حدث بينهما شيئا يستوجب البكاء ، فلماذا إذن فعلوه ؟! » .

وفى الأشهر التالية لهذا الحادث كنت أسمع جدتى تكثر الكلام حول الشباب وطول العمر وضرورة التصرف بحكمة . وتبدت الحكمة جلية فى إحدى ليالى الشتاء التالى حين رأيت أمي تخرج من بيت أبيها بشكل أثار حزنى وأنا صغير ، وبث الرعب فى قلبي كأننى ضعت فى صحراء . و لم يقل لى أحد شيئا و لم أستفسر عن الأمر . لكن أمي قبلتنى وهى خارجة والدمع فى عينيها ، ورائحة عطر نفاذ تفوح من ملابسها . و لم أتحرك من مكانى و لم أرد عليها تحية الوداع لأننى كنت مخنوقا . وبعدها خيم السكون على البيت وأحسست حقا أنها ليست فيه . وتذكرت دموعها ودموع أمها وأنا فى نفس المكان الذى كنت فيه فى الشتاء الماضى — عدت أسأل نفسى السؤال القديم دون أن أطلب من أحد جوابا : « إذا كان هذا الذى حدث شيئا يستوجب البكاء فلماذا إذن فعلوه ؟! » .

ثم ضمنى أبى بعد ذلك بسنتين ، ولن أعود يا سيدتى فأصف لك الحياة فى بيت أبى ، لأن مثل هذا اللون — كما قلت لك — يغنى إجماله عن تفصيله ؛ لكننى سأكتفى بوصف حادث واحد وقع لنا بعد عام :

كان ذلك يوم عيد ... حين اصطحبنا أبى جميعا إلى إحدى الحدائق العامة ، وفرشت أسرتنا سجادة على الحشيش ووضعت عليها متاعها وطعامها وشرابها ، وما كدنا نستقر فى موضعنا ونفحص الناس من حولنا حتى تبينت أن الأسرة الصغيرة الجالسة على مقربة منا تضم بين أفرادها أمي ، فتلفت فى

حذر إلى وجه أبي لأرى هل تبدو عليه علامات المشهد الذى أراه ؟ ولما التقى نظرنا رأيت قلقا قاسيا يطفو فى عينيه ، وفهم من نظرتى ماذا أريد أن أقول له فأعرض عنى قليلا وتنهد ثم حول عنقه نحوى وتنهد ، ثم نظر إلى أغصان الشجر وتنهد ، ثم أمسك بذراعى فجأة وضغط على عضدى وهو يقول : قم فسلم عليها .

وطرت أتدحرج كأننى كرة دخلت إلى هدفها من ضربة واحدة ، فاستقبلتنى بين أحضانها ، ورأيت الدمع القديم الذى طالما بلل خديها فى بيت أبويها ينبثق من عينيها ، فالتقطته — شفتاى مرة أخرى . ثم أشارت إلى طفلين صغيرين بجوارها تحتضن أحدهما امرأة عجوز وقالت : هؤلاء إخوتك ، وكان إلى جوارهما رجل رأيت فى عينيه نظرات قلقة ، مثل التى تركتها فى عينى أبى على بعد عشرة أمتار .

وانقضى يوم العيد على كل حال ، فلما أويت إلى فراشى فى بيت أبى واسترجعت المنظر الذى رأيته فى الصباح ، عدت فسألت نفسى السؤال الخالد محورا بعض الشئ : « إذا كان هذا الذى حدث شيئا يستوجب الندم فلماذا إذن فعلوه ؟! » .

✻ ✻ ✻

ولم تستقر بى الحياة ولم تهنأ إلا فى البيت الثالث ، فى مسكن جدى ، فى الشقة الوادعة فى الضاحية . هناك لقيت منه حنان أبى وأمى ، وكان يعتذر لى عن كل ما حدث من أبوى كأنه هو الذى فعله . يعتذر فى ندم وخجل وهو يمصمص بشفتيه ويقول لى : إنه الشيطان يا بنى ... لو قذفه أحدهما بحصاة ليلتئذ ما افترقا قط .. لكنه نصيب .

وفى صباح كل يوم كنت أشرب معه الحليب ، وعصر معظم الأيام أخرج

معه إلى النزهة ، أما الأمسيات فكانت مليئة بالأسمار والذكريات حتى امتزجت روحي بروحه فأنساني كل ما مضى .

وها هو ذا قد مات ياصديقتي . لم يزعج أحدا حتى فى طريقة موته ، فقد دخلنا عليه حجرته فى الصباح فرأيناه وقد قدر له مواصلة النوم مع أنني سمعت سعاله قبل الفجر . فهل عرفت لماذا أنا عليه جد حزين ؟ . لقد كان يتمنى أن يرانى متزوجا ، وكنت أسخر بيني وبين نفسي من أمنياته لا لشيء إلا لأنني أخاف من الأشباح . ألا تعلمين أن الأشباح لا وجود لها ، ولكننا نشعر بها وهما ونخاف منها كأنها حقيقة ؟؟ فهل أنت قادرة يا سيدتى على أن تطمسى الماضى فى نفسى ؟ . وهل تملكين من ضبط النفس ما يجعلك لا تقدمين فى حياتنا الزوجية على ما يسبب البكاء إذا خلونا بنفسنا والمكابرة إذا كنا بين الناس؟؟ وهل أنت واثقة من قدرتك على منع يدك من العبث بالأسلحة الخطرة التى تختار ضحاياها من أطفالنا الأبرياء ؟؟

إن قلبى يحس أنك قادرة على كل هذا . إنك ذات ملامح طيبة متسامحة ، وقد قلت لى ذات مساء : « إنك تعطفين على ضعف الإنسان ، وتودين أن تمسحى التراب عن ثوب كل من يكبو على الأرض » .

إننى سأنتظر رسالة منك . فإذا كانت « لا » فلتكن نفس رسالتى راجعة فى غلاف جديد من عندك ، وإن كانت « نعم » فستكون بخط يدك ... وأظن أنك ستقولينها ، فأوقدى لى شمعة على الطريق .

الليلة الموعودة

تنفست الست بهية بارتياح ، بعد أن عادت من بيت بنتها العروس ، ثانية بناتها وأخراهن، وابتسمت فى رضا ينم عن أن كل شئ على ما يرام .

و لم تكن الست بهية تعلم أن الراحة التى يشعر بها الناس بعد إلقاء الأحمال الثقيلة عن أكتافهم — لا تلبث أن تتحول إلى فتور ثم ملل . ومن أبواب الملل تدخل على الناس مخاطر لا حصر لها . سواء أكانوا فى دور الشباب أم جاوزوا الخمسين من العمر كما هو حال الست بهية .

وفى مساء هذا اليوم نفسه أشعلت الست بهية معظم مصابيح النور فى شقتها ذات الحجرات الأربع ... كانت وحيدة فى هذه الليلة وكانت تريد أن ترى الأشياء واضحة حولها ، فقد بدت قطع الأثاث التى تقع فى الظلمة الخفيفة أو فى النور الواهن وكأنها تهمس إليها بذكريات تعذب الروح .. عن زوجها الراحل . مأمور أحد السجون فى العهود القديمة أيام كانت القسوة هناك مطبوعة على كل شىء .

وكان تخاف كأنها امرأة فى سجن النساء ، وتسأل نفسها دون أن تجرؤ على الجهر بسؤاله : هل ينسى زوجى حساب الزمن بحيث لا يعرف إن كان فى السجن أو إن كان فى البيت ؟ . لكنها مع كل ذلك كانت تكن له الحب ، وتعتقد أن غيرته عليها ذات فرعين ، مثل فرعى النيل .. واحد سره رجولته الكاملة .. والآخر سره أنوثتها وجمالها ..

والفرعان معا يصبان فى بحر الحب الذى لا شاطئ له .

وامتلأت نفسها بالحسرة ، وجالت فى عينيها الدموع عندما عاودتها هذه



وكانت تخافه كأنها امرأة فى سجن النساء

الذكريات ، وهذه الشقة التى تسكنها منذ عشرين عاما لا تزال محتفظة بوقع خطواته الثابتة وهو داخل آخر الليل ، وبرائحة منديله المعطر بالكولونيا ، وهو خارج وقت الصباح .

ونظرت الست بهية إلى المصابيح الكهربائية التى أخذت تهتز بنسمة عابرة من إحدى النوافذ ، ثم قامت تتمشى فى المسكن فسمعت وقع أقدامها ، فأحست كأنها فى خراب ، وتمنت فى قرارة نفسها أن يطرق عليها أحد بابها .. أى أحد ممن تعرفهم مادام ابنها العاق لا يأتى إلى المنزل إلا فى ليال نادرة ،عندما تعضه الحاجة إلى شىء ما ،فيبيت ليلة أو أكثر يستمع الناس فيها إلى عراكهما وبعد أن يأخذ ما تقع عليه يده من نقودها أو حليها يذهب إلى حيث كان ، وتبقى الست بهية فى انتظار الدورة القادمة .

ولو أن هذا الابن الضال قد كان السبب المباشر فى موت أبيه المرحوم ؛ ففى إحدى ليالى الشتاء منذ عشر سنوات نشب خلاف بين الأب وابنه الشاب بسبب فشله فى الدراسة ، ومبيته خارج المنزل وأخذه النقود من البيت بوسائل مخيفة . وتذكرت الست بهية هذه الليلة حين كان الأب راجعا من الخارج فوجد المعركة محتدمة بين الشاب وأمه . وأختاه واقفتان تبكيان أو تدوران حول ميدان المعركة فى وجل . ولما أدار مأمور السجن — أى الوالد — المفتاح فى باب الشقة ، ورأى ما رأى ، ظل منتصبا بجثته الضخمة ووجهه الحجرى التعبير على بعد خطوات من الباب الذى أغلقه وراءه ، وتقدم إلى الابن وعضلاته ترتعش ثم هوى بصفعة على وجهه .. فبكى ..

من الذى بكى ؟؟

لقد بكى الأب و لم يبك الابن ، بل ظل واضعا كفه على مكان اللطمة ، محملقا فى أبيه فى غيظ الذئب المحبوس ، وانخرط الرجل الضخم فى البكاء

بشكل هستيرى جعل الست بهية تعجب ، كيف يبكى هذا الذى يمثل فى نفسها قوة جبارة .. مثلا .. كيف يبكى القضاء والقدر ؟؟

وحملقت البنتان ليلتئذ فى ذهول ، ثم فرت كل واحدة إلى ركن من البيت وجلس الأب بطوله وعرضه على كرسى من الخيزران فى اللحظة التى فر الشاب فيها خارجا من الباب ، وتزايد اهتزاز الأب ببكائه حتى صار تشنجا ثم .. نوبة تشبه الصرع سقط بعدها الأب ، وظل أسيرها حتى مات فى خلال شهرين .

ها هى ذى الست بهية تنظر إلى المصابيح التى أشعلتها كلها لتبدد الظلام وتختفى الوحشة ، وتتمني أن يدخل عليها أحد . وذهبت إلى الخادمة الصغيرة لتوقظها ، غير أن تعب النهار جعل نومها ثقيلا ، فذهب جهدها هباء .. لكنها لم تلبث أن سمعت الجرس يدق فسارعت فى مشية البطة إلى الباب تفتحه ، فلما رأت وجه القادمة هتفت فى عجب : أم إمام ؟؟ .. مـاذا أتى بك الآن ..؟؟ آه .. ادخلى .

وجلست أم إمام على مقربة من الست بهية تحملق فيها بلا تكليف ، وعلى وجهها الأسمر الناحل ومضة ابتسامة نسوية سر سحرها مجهول ، وأم إمام هذه زوجة أحد الفراشين فى مدارس الحكومة ، فقيرة كثيرة العيال ليس فيها شيء جميل إلا ذلك السر المجهول الذى يسمى بالنعومة وحسن التأنى للأمور. وكان موقعها من نفس الست بهية هو موقع الوصيفة المخلصة فى قصور أيام زمان ، مع فارق واحد هو أن أم إمام كانت امرأة عامة ، تعرف سيدات كثيرات غير الست بهية ، ومن الممكن أن يضعنها فى الاعتبار نفسه أيضا .

وضحكت أم إمام فى مرح تحاول به أن تمحو هموم الست ، لكن الست قالت بصوتها اللين المبحوح :

ــ لقد بدأت أشعر بالوحدة ... وكأن الشقة يا أم إمام لا تزال فيها جثة زوجي (ودمعت عيناها الجميلتان) أنا أشعر كأنني فى مأتم .

فتركتها المرأة فى صمت ونهضت بسرعة من خطر له خاطر مفيد ، ودخلت إلى نهاية الطرقة الضيقة التى يقع فيها الحمام ، وتبعتها الست بهية بخاطرها وسمعها فتناهى إليها بعد قليل صوت أزيز وابور الجاز ، وصوت طشت نحاسي يجر على البلاط فعلمت أنها تجهز حماما .

وبعد الفترة المطلوبة لسخونة الماء دخلت المرأة مع الست بهية لائذة بالصمت ، مستسلمة للجو الذى يسود الحمامات عادة ، من الهدوء اللطيف ، ورائحة عطر الصابون ، أما المرأة الأخرى فقد عادت بكلامها إلى ذكرى ليلة قريبة ... كانت أول أمس فقط ... ليلة كانت بنت الست بهية فى جلوة العروس ، وكان أحد أقارب « العريس » قد حام حول المكان فى طلب شيء ، فنادى أم إمام ثم سألها : من هذه السيدة ؟؟ من هذه السيدة يا أم إمام ؟

وانفك حصار الصمت حول فم الست لأول مرة فى هذه الليلة حين سألت أم إمام قائلة وكأنها تنفى عن نفسها كل حسن :

ــ وما الذى أعجبه فى حتى يسأل عنى ؟؟

فأخذت المرأة تصف لها محاسن وجهها وتفصيل جسمها وهى تريق عليها الماء الفاتر، فى حذق ومهارة وعدم مجانبة للحق،فإن الست بهية كانت ذات وجه يخطف كل عين ، وعقل يصدق كل قضية تتعلق بجمالها . تذكرك بإحدى هوانم الترك اللاتى سقط عنهن « اليشمك » تلبس بعد ترملها فى الخارج أرق أنواع الحرير الأسود وأكثره شفافية ، وتبدو منه عضداها وظهرها من الخلف فى رونق يجعل العين تنسى تاريخ ميلادها على كل حال .

وعادت الست تسأل المرأة متجاهلة كل ما وصفتها به : « ولكن لماذا

يسأل عنى ؟ » فضحكت أم إمام ضحكة ظاهرة المعنى حملت الست على أن تقول لها بلهجة فيها شبه تأنيب :

— لقد كنت حقيقة صاحبة الفضل فى جلب الأزواج لبناتى ، لكننى أستبعد عليك أن تفكرى فى أن تجلبى لى زوجا ... فنحن قد شبعنا من الدنيا .

ولم تكن هذه هى الحقيقة الكامنة فى أعماقها ، بل كانت تتمنى فى قرارة نفسها أن تتزوج ، غير أن ظروف حياتها لم تكن مواتية ، فلم تجرؤ على أن تفعل وبنتها لا تزال معها عذراء ، فلما تولت أم إمام تدبير الأمور للبنتين، وسار كل شيء على ما يرام — أحست الست أنه من الممكن أن تكون فى الحياة فرصة أخيرة .

وعلى مر الليالى ، وبتداول الحديث فى السهرات ، وبما كانت تقدمه الست بهية للمرأة من هدايا ، بدأت المسألة فى خاطرها تأخذ وضعا جديرا باعتبار الناس . وضعا اجتماعيا بحتا أوحت به الست بهية إلى المرأة ، ثم عادت المرأة فأوحت به إلى الست بهية كأنه من بنات أفكارها هى . وكان للهدايا والمنح دخل كبير فى اقتناع الأخيرة بما قالت — وهذا الوضع هو : « ما قول الناس فى امرأة تعيش وحيدة فيها كثير من الجمال على الرغم من أنها جاوزت الخريف ؟ ألا يظنون بها الظنون إن رأوا رجلا يدخل بيتها لبعض المصالح المالية ؟ ثم ألا يظنون بها الظنون إن رأوها تكثر من الخروج لقضاء مصلحة أو زيارة أحد ؟ فلم تتحمل كل هذا العناء ؟» .

وبدون أن تحس ... رأت الست نفسها تكشف عن أمانيها للناس وهى واقفة على أعلى منبر . فكما يرتمى الصيد فى أحضان النمر من فرط خوفه منه . وجدت الست بهية نفسها ذات مساء تعلن لابنها رغبة نفسها ، أثناء عراك نشب بينهما على المال ... هى نفس القصة القديمة التى لم تتغير لكن

مسرح الحوادث كان قد خلا من كل أفراد الفرقة ما عداها هى . فأقسمت أنها ستتزوج وأنها ستكتب كل مالها لزوجها لتفر من براثن هذا العاطل العاق ... الذى هو ابنها ، ومن مطامع ناس آخرين يودون أن تموت ، منهم زوج بنتها .

ولم يكن هذا الإنذار صالحا لأن يهدئ ثائرة أكثر الناس برودا ، بل جاء كأنه زيت على نار ، فأثار فى الشاب غيرة الأبناء على الأمهات مقرونة بحرص الوارث على كل شىء سيرثه . وظلت هذه العوامل سببا فعالا فى تفاقم الخلاف ، وتوسيع الفجوة بين القلبين . وكانت بالتالى سببا ملحا وحيويا معقولا فى قبول مشورة أم إمام بأن الحل النهائى للموقف لا يكون إلا بالزواج ...

وإذا كانت تجربة أول أعمارنا تثير فينا المخاوف مع وجود الفرص لتدارك الأخطاء وتعويض الخسائر ، فما بالنا بتجارب آخر العمر ؟؟

وهمست الست بهية ووجهها قريب من وجه أم إمام وعيناها الجميلتان شاردتان قائلة لها « لكننى خائفة » .

وجاءتها ضحكة من المرأة الناعمة التى أكلت على موائد عشرة أحياء من المدينة وتقبلت هدايا كثير من الرجال والنساء ، لأنها كما تقول عن نفسها : « فقيرة لها فى الجنة ألف قصر فقد جمعت فى الحلال رءوسا لا تحصى ولا تعد » .

وانقطعت زيارة الابن عن أمه ، وجاء زوج البنت الأولى ذات ليلة يطلب منها قرضا حتى نهاية الشهر .. طبعا من القروض التى لا ترد . فلما ذكرته بما مضى خرج هو وأرسل زوجته . ودخلت الفتاة على أمها ثائرة لا تعرف ما تقول ، خصوصا بعد ما تناهى إلى سمعها أن أمها تفكر فى الزواج وأنه

من الطبيعى أن يستأثر الزوج بكل خيراتها .

ــ إن مرتب زوجى عشرون جنيها نسكن منها بثمانية وعندنا أولاد .

ــ وأنا مالى ؟ .

ــ ألست أنت التى زوجتنى له ؟

ــ لأنه من الضرورى أن تتزوجى .

فقالت البنت بلهجة ذات معنى :

ــ كل الناس فى نظرك ونظر أم إمام لابد أن يتزوجوا .. كل الناس ؟

ثم صمتت ونظرت كل إلى الأخرى فى حنق ، واستطردت البنت :

ــ لا داعى للنقود ... عندى اقتراح آخر .. فهل تعرفين عنوان واحدة منهن ؟؟

فسألت الست بهية فى تعجب :

ــ من ؟

ــ من إحدى المرابيات ، فأنا مستعدة أن آخذ الجنيه بريال من أى مرابية ؟

واحتدم الجدال مرة أخرى بين المرأتين ، وجرى نقاش يشبه « كشف الحساب » حول معاش الست بهية ودخلها من أرضها التى ورثتها عن أبيها ، فضلا على أنها تسكن بإيجار قديم فكأنها ساكنة بلا أجر . وهى امرأة لم تعرف المرض وتعادى الدواء حتى أقراص الأسبرين ، وفيها حياة أكثر من بناتها ، فهناك إذن دخل بلا نفقات .

وكلما دخلت عليها أم إمام عتبة المسكن كانت تقول قبل أن تخطو إلى الداخل :

ــ يا حفيظ ؟ .. ما للدنيا ساكتة عندك كده ؟ .. ولا سكون القرافة ؟

ثم تسألها بعد ذلك عما جد من أحوال ، وهل هناك مطامع جديدة ؟

وجسمت فى نفسها خاطرا كان له أصل ، هو أن مصيرها أحد اثنين : فإما أن يقص أجنحتها أولادها المحتاجون دائما إلى المال ، فلا يبقى لها إلا المعاش وربما طال العمر فلن يكفيها ، وليس هناك بيت يغنى بيتا ، وإذا كان ابنها عاقا فاشلا فلن ينفعها أزواج البنات ...

وإما أن تركب عربة من القطار قبل أن يغادر المحطة .. قطار الزواج ..

ثم تتحدث بعد ذلك حديثا كأنه لا يعنى الست بهية فى شيء، وإن كان كله موجها إليها . عن أناس سعدوا فى طرفة عين ، بمجرد مصادفة جمعتهم فى مكان ما فتزوج بعضهم بعضا .

ـــ « وإلا ماذا يعمل الناس إذا لم يتزوجوا يا ست بهية » ؟

ثم قالت لها بعد شهرين :

ـــ لن يحس أحد بما سيحدث فى منزلك مطلقا ، فسيجيء معى عريس مناسب صباح غد ، فى الوقت الذى تكون بناتك فيه مشغولات بأعمالهن ، وهو رجل من ذوى الأملاك ، فى الستين من عمره ـــ ولا أكذب عليك ـــ وبصحة حسنة . لم ينجب إلا ذكورا وتزوجوا وتركوه يعانى الوحدة ...

ومصمصت بشفتيها فى حسرة ، طالبة من الله أن يجعل يومها قبل يوم زوجها ، ثم استطردت :

ـــ أنت خائفة من أولادك ؟ .. ماذا يفعلون حينما يعلمون أن زوجا شرعيا غنيا محترما نقلت إلى بيته ولا يريد منك مالا وأن خادما زنجيا يشبه المارد سيفتح الباب لمن يدق الجرس كما حدث لى .. وفيها غنائم .. أعطى هذه الشقة الرخيصة لبنتك درية التى يدفع زوجها نصف مرتبه فى أجرة السكن ويعيش بقية الشهر معتمدا على « ما اعرفش » .

وتنهدت أم إمام ، وكانت الست بهية طول المدة ساكتة لا تتكلم وتتصور أنها ستموت وحيدة محتاجة ، وأن إحدى بناتها ستكون فى دور الولادة وأن الأخرى ستكون مريضة بالحمى ليلة موتها ، أما ابنها الضال فسيأتى بعد أسبوع أو أكثر عندما يصل إليه الخبر فى المكان الذى سيكون فيه — سيأتى مشمرا عن ساعديه وساقيه يجرى عرقان ليسأل عن تفاصيل الميراث الذى سيضيعه فى بحر سنة .

فتنهدت بهية ونظرت مرة أخرى إلى أم إمام وقالت لها وعيناها شاردتان :

— أنا خائفة ...

— هل غششتك فيما قلت ؟

فهزت رأسها نفيا ، فقالت المرأة :

— لماذا أغشك فى أعز مهمة سأفعلها من أجلك ؟ إتكلى على الله .

وأخذت ملاءتها والتفت بها وانصرفت كأنها طيف خبيث .

وفى الموعد المحدد دق الباب ، وكانت الست بهية فى أبهى زينتها . إحدى هوانم الترك سقط عن وجهها « اليشمك » ، فى ثوب جميل غير مكشوف تتحرك فيه كأنها بطة . ودلف إلى حجرة الصالون رجل مسن لم تتبين ملامحه من أول نظرة . فقد كانت على عينيها الغشاوة التى تحجب منظر العرسان عن عيون العذارى فى مواقف الخطبة الملعونة ، وقلبها يخفق وكادت بعد أن دخل الرجل تقول لأم إمام : « خذيه واخرجى ، فأنا لا أريد » .

ودق الباب فى هذه اللحظة دقة تشبه دقة ابنها فدارت بها الأرض ، وحمدت الله حينما علمت أنه صبى جديد لبائع الزبادى جاء يطلب « الفارغ » فقالت لها أم إمام : « بيضاء .. إن شاء الله » .

وجلس العريس يحتسى القهوة ، وبعد أن فرغ منها اعتمد بذقنه

على عصا من الأبنوس لامعة ، وسادت فترة صمت كان الرجل فيها مأخوذا ولا شك بالخصوبة والحياة التى رآها فى بيت الست بهية ، وفى البسمة التى لم تنطفئ بعد على شفتيها الخاليتين من أى دهان .

ورأى العريس أنه لا بد أن يتكلم فهو السلك « الموجب » فى مواقف الخطبة دائما ، فتحدث عن الوحدة ، وعن زواج أبنائه ، وأن الله وفقهم جميعا فى وظائفهم وزوجاتهم ، وأنه يأكل وحده ، وضحك عن أسنان فى أناقة الأقحوان ونظافته وبياضه . أحسن تركيبها طبيب مشهور . ثم أحس بشىء من العرق فرفع الطربوش عن أصباغ سوداء تغطى شعر رأسه المفروق ، وقد لوثت جزءا من الجبهة بلون بنفسجى . ولد من الأخلاط السوداء التى بقعت بشرته المائلة إلى الحمرة .

وكان يتحدث عن مرض « النقرس » فى اللحظة التى خلع فيها نظارته لينظف زجاجها ، فظهرت عينان منتفختا المقلة ، شديدتا الاحمرار كأن صاحبهما سكير مدمن ، وسقطت العصا الأبنوس على الأرض فأخذها بيد شديدة الارتعاش ، كأنها قطعة من الجريد يسير بها إلى الأرض .

ولما أشعل السيجارة كح طويلا فلعن البرد وفعله بالناس . وخيل إلى الست بهية أن « طاقم أسنانه » سيثب من فمه أثناء السعال فراودتها ابتسامة غطتها بطرحة « الدانتلا » الجميلة التى طرحتها على رأسها .

لم تكن الست بهية تتوقع بالطبع أن ترى شابا فى ريعان صباه ، بل كانت تتوقع أن ترى شيخا لا شبحا . وغطى على كل أفكارها صوت أم إمام وهى تسأل الرجل أسئلة تفيد أجوبتها بما يشرح قلب العروس :

— وهل عثرت على طباخ جديد يا بيه ؟

— وما قصة الساكن الذى لم يدفع الأجرة لمدة سنة ؟ تركته لله ؟

والنبى ابن أصل .

وأوشكت الجلسة على الانتهاء ، فاقترحت أم إمام قبل الخروج أن يتفرج سعادة البيه على الشقة التى تسكنها الست بهية وحدها ، ولم تر صاحبة الشأن فرصة تسجل فيها اعتراضها فقد بدأت أم إمام فى تنفيذ الفكرة ، وأخذ البيه يمشي الهوينا ونقرات عصاه ترن على الأماكن غير المفروشة فى نواحى المسكن ، وهو يردد كلمات عرفت الست بهية أنها هى المقصودة بها :

— يا سلام يا سلام ... يارب زود وبارك ... فى نظرى أنا .. هذه ال .. ال .. الشقة ، ولا فى الدنيا مثلها .. ولا واحدة كان ..

ولما وصل إلى الباب الخارجى أمسك يدها البضة يسلم عليها وهزها فى شغف من يقول : إلى اللقاء ..

ولما انفردت المرأتان سألت أم إمام صاحبتها وعلى فمها تلك الابتسامة الناعمة المجهولة السحر :

— إيه ... ما رأيك ؟

فتنهدت الست بهية فى عمق شديد وتأوهت وهى تقول :

— رأيى ؟ .. تعرفينه غدا مساء ! اتركينى أفكر !

ولما التقت المرأتان فى المساء التالى كانت الست بهية بادية الهموم ، وخمنت المرأة الثانية أنها فى دوامة التفكير فيما يجب أن تفعله مع أبنائها إن وافقت على الزواج من هذا الرجل . لكن ظنها أخذ يتبدد بعد أن قالت الست :

— لعلك تعلمين يا أم إمام أننى كنت أحب زوجى المرحوم جدا ، ولذلك كان شعورى طول اليوم الماضى شعور المرأة التى ستلبس بعد قميض الحرير قميصا من الدمور و ..

فقاطعتها أم إمام ، بعد أن رشقتها بنظرة مليئة بمعان خبيثة قائلة لها :

ـــ أستغفر الله العظيم .. لم يكن قصدنا يا ست أولا إلا تخليصك من الوحدة .. ثم .. هو رجل كبير المقام .

فشهقت بهية وقالت :

ـــ وعندما يراه أولادى ويراه الناس سيقولون قولا حقا : « ما معنى زواجها من هذا الرجل ؟ لأجل أنه غنى قادر ؟ كيف ذلك وهى غير محتاجة . إذن فالمسألة قبل كل شيء رغبة الزواج منها هى .. ولو تقدم لها خير من هذا العريس لقبلته طبعا بدليل أنها رضيت بالحطام المربوط .

ثم سكتت لتستطرد : هذا ما سيقوله الناس يا أم إمام فما رأيك ؟ وأحست المرأة أن القضية أصبحت ذات شعبتين .. شعبة الكرامة ، وشعبة عدم الغبن فى الصفقة ، وأنه مادام « الأمر سيعمل » فلماذا لا يعمل على أصوله ؟ . واقتنعت بينها وبين نفسها بموقف الست بهية ، وقبل أن تفيق من تفكيرها جاءها صوتها عاليا يقول بعد أن رن بالضحك :

ـــ ثم أنا لا أريد أن أجدد أحزانى على المرحوم ، فإنه بعد بضعة أشهر أو ربما سنة سيموت هذا الرجل فتتجدد الأحزان بلا مقابل ؟

وفى الوقت الذى كانت أم إمام فيه مشغولة بالبحث عن عريس آخر ، عادت الدوافع الخارجية حول الست بهية تؤكد لها ظلام مستقبلها بين أبنائها .

فقد دخل عليها ذات مساء ابنها الظالم الذى يشغل عددا من الأعمال ولا عمل له .. دخل معصوب الجبين برباط من الشاش ، وكان وجهه المنطفئ البادى عليه الجهد ، تلمع فيه عينان عصبيتان مخيفتان . واحتضنته الأم ، خائفة عليه ، خائفة منه فى وقت واحد ، فدفعها بكلتا يديه ليبعدها ، فسقطت جالسة على أقرب كرسى فى المدخل ، ثم جلس يدخن فى عصبية

تثير الجنون وينفخ الدخان فى المصباح الكهربائى فى السقف وعيناه تحملقان نحوه .

وظنت الأم أنه مجنون أو مقدم على ارتكاب جريمة ، وقام فجال خلال المسكن دون أن تجرؤ على التحرك خلفه . فقد خمنت أنه علم بما حدث ، وأنه جاء بشحنة من الغضب والكره قد تؤدى إلى عمل كريه . وجعلت تتذكر الليلة التى ولدته فيها والزغرودة التى أطلقتها خادمة فى الصالة حين بشروا بغلام ، والرعد والبرق وهطول المطر وقت المخاض . وتذكرت الصفعة التى أهداها إليه والده ثم مات بعدها من الغيظ لأنها كانت علامة اليأس فى نظره .

ووقع خطواته فى الشقة يدل على الشر ، وطلب نقودا فأعطته ، وعاد فجلس يدخن وينفخ فى وجهها .

واستجمعت كل قواها وسألته :

ـــ ماذا أصابك ؟

« وأشارت إلى رأسه » .

ـــ وأنت مالك ؟

ـــ ألست أمك ؟

فأجاب فى حنق :

ـــ من الغريب أننا نستطيع أن نقول لآبائنا : لا . ولا يمكن أن نقولها لأمهاتنا ، فأنت أمى ضرورى .

ـــ عال . إذن ما أصابك يا بنى ؟

ـــ كنت فى معركة .

فخبطت صدرها وقالت :

ـــ معركة ؟

ـــ نعم وأصبت رجلا بإصابة أرجو ألا تتحول إلى عاهة دائمة ، وماذا أعمل ما دام غضبي يدفعني غالبا إلى ارتكاب جرائم ؟

فانكمشت المرأة فى نفسها ، وملأها الخوف ، وتعجبت كيف أنجبت مثل هذا الشاذ وسألته :

ـــ وهل صالحت زوجتك ؟

ـــ لا تسأليني عما لا دخل لك فيه ..

ـــ وأين كنت قبل أن تجيء إلى هنا ؟

ـــ كنت فى ميناء بور سعيد أشغل عملا هاما .. لكن .. دب خلاف بيني وبين رئيس متنطع فتركت عملي .

وسكت ليقول وهو يشعل سيجارة :

ـــ أنا أعرف ما تقولينه فى نفسك الآن . تقولين هذه ثاني زوجة وعاشر عمل ، ولم تفلح فى شيء .. طبعا .. لكن ليس هذا ذنبي وحدى .. بل ذنب الناس الذين استعصى فهمي على عقولهم .

فلم تملك الست بهية أن تمنع نفسها من الضحك ، فتلفت ابنها حوله فى عجب وقال لها كمن كان يترصد أخطاء الآخر ليأخذه بها ، قال بصوت صارخ :

ـــ من أى شيء تضحكين ؟ . نكتة قلتها ؟ . هل تضحكين من جروحي ؟ لقد بلغني أنك ستتزوجين فعلا وأقسم لك أنك إن فعلت فستكون العاقبة وخيمة .

ثم قام مسرعا وصفق خلفه الباب ، فساد صمت يأخذ بمجامع الأنفاس ويكاد يخنق ، وهبطت على المكان وحشة جريحة حين بقى منظر الضمادة

على جبين الابن ماثلا أمام عينيها . فقامت وأشعلت معظم مصابيح الشقة ، وعادت فجلست تستمع إلى وساوس نفسها .

ولم تكن الست بهية تعلم أن ابنها كذاب حتى فيما يتعلق بحقيقة الإصابة التى فى جبينه ، فلم يكن هناك عراك ولا اشتباك ولا عاهات بل كان راكبا سيارة أحد أصدقائه الرقعاء المولعين بالسرعة فأصيبا فى تصادم ، لكنه انتهز هذه الفرصة ليثير فى قلبها المخاوف حتى يأخذ ما يشاء .

كل هذه العوامل التى أحاطت بالست بهية جعلتها تحس بالضعف أمام إغراء أم إمام بالزواج ، فضلا عن أن المرأة كائن يحب العطاء وهى لذلك تبدو أكثر من الرجل تشبثا بالحياة العاطفية والعائلية ، ومن هنا جاء ميلها الفطرى المشهور فى تناسيها حقيقة سنها .

وهذه أيضا جعلت الست بهية التى تملك بقية صالحة من الحسن توازن بين الإقامة فى بيت العذاب الذى تقطن فيه ، وبين الرحيل إلى الجنة الموعودة التى تبحث لها أم إمام عن مفتاحها .

وقررت مرة أخرى أنه من الخطأ أن تستسلم لقيود الأسرة وأنه إذا ما وجدت الزوج المعقول فإنها لن تتردد .

وانقطعت أم إمام شهرا لم ترها فيه ، ثم دخلت على شوق متهللة الأسارير ، معلنة فى فرحة المكتشف أن ليلة القدر قد كانت ليلة ميلاد الست بهية ، وأن الصبر المر الطعم سينقلب حالا إلى عسل .

وسألتها الست بهية عن الحكاية فمالت عليها المرأة تحكى والابتسامة الناعمة المجهولة السحر مطبوعة على وجهها الأسمر :

— إنه رجل تعب من الوحدة .. مثل حالك .

— ماتت زوجته ؟

— ألعن .

— ألعن ؟ .. لا أستطيع أن أفهم .. هل طلقها ؟

— لقد زوجوه وهو صغير السن بعد أن وظف مباشرة ، من قريبة ريفية منذ أكثر من عشرين سنة ، وتغيرت الدنيا ورأى النور فى المدينة وهو لا يزال صغيرا والست إياها .. لم تتغير

— هل تريدين أن أتزوج على ضرة ؟

— الصبر جميل . اتركينى أكمل الحكاية ، و لم يدر هذا الرجل المسكين ماذا أصاب زوجته . كان وزنها يزيد كل شهر ثلاثة كيلو جرامات وبقيت تزيد وتزيد حتى تحولت إلى فيل .

— اللهم احفظنا .

— ليس هذا هو المهم فالرجل مظلوم ، ليس بطران ولا كافرا بالعشرة حتى مع الفيل ، فقد أصيبت بشلل من كثرة الشحم وهو مع ذلك محتفظ بها لأنه أنجب منها بنتين .

وشعرت الست بهية أن أم إمام تتكلم عن إنسان ، فيه كل معانى الإنسانية لكن له عذرا آخر . عذر رجل صحيح سليم يعيش فى مدينة تملؤها المغريات فليس عليه من عيب إذا حصن نفسه بالزواج . أليس ذلك خيرا من الطريق المعوج ؟

وخالطت صدرها راحة رطبة مثل التى نحسها عقب شرب الماء البارد بعد ظمأ شديد فى يوم حر . فتنفست الصعداء وسألتها :

— ما عمله ؟

— موظف عال العال غير محتاج لأحد ، وقد تعهد أن يفتح لك بيتا صغيرا لأنه لا يوافق على أن يسكن مكان زوجك الأول .

وأحست الست بهية ــ بعد الكلمة الأخيرة ــ أن شيئا قد لسعها .. وسألت نفسها : « هل سيغار على ؟ » لكنها عادت فأكبرته فى قلبها ، وكادت تعرف شخصيته من خصاله ، فقالت المرأة :

ــ لا مانع أن نتقابل .. لكن .. أتعرفين أين ؟ سيكون ذلك فى منزل الحاجة كريمة صديقتى ، منعا للمشاكل .

وفى منزل الحاجة كريمة تقابل العروسان ، واحتفلت بهما ربة البيت الطيبة المسنة ، وكانت تخلى لهما المكان فترة بعد فترة ليستطيعا أن يتحدثا عن مستقبلهما بحرية .

أما العريس فقد كان هو السيد أفندى المصرى الموظف بوزارة التموين . رجل فى حدود الأربعين لم تستطع الست بهية التى لبست ليلتئذ أبهى ما عندها ــ أن تحبس عينيها عن تطلع مزاياه ، روحه تتواثب من عينيه الواسعتين السليمتين الذابلتين ، اللتين لا تخلوان من التعبير أبدا . وكان رقيق العود أنيق الملبس على الرغم من أن ثيابه ليست من النوع الغالى فقميصه الأبيض ورباط عنقه الأحمر وبذلته البيج ، وشعره الذى لم يتساقط منه شىء وإن وخطه الشيب ، ولونه الفخارى الحلو ..

كل هذه المعالم ارتبطت فى خاطر الست بهية بمعالم الوجيه السابق ذى الشعر المصبوغ ، والوجه المنتوف والعصا الأبنوس .

فأحست أنها أمام حياة يمكن أن تبدأ ، فى جنة رجل مستقيم حرمه الله من زوجته بمرضها ، فراعى حقوق الله فى كل تصرفاته .

وكان يكلمها باحترام شديد ، فلا يخاطبها إلا بلفظ « هانم » ويميل رأسه أثناء الموافقة على رأى ما كأنه عاشر الدبلوماسيين ، ويشرب الماء بنهم والقهوة بنهم ويمص السيجارة بنهم ويتحدث عن موعد إنهاء الأمور بينهما بعجلة رجل

يريد أن يعب من الحياة .

ووازنت الست بهية وجهه المعبر ، والشارب الرفيع على وجهه المسمسم وبين وجه المرحوم مأمور السجن ، فحادت عن الذكر كما يعز علينا أن تطأ قدمنا جثة عصفور على قارعة الطريق .

وتكلم السيد أفندى المصرى موجزا ما يطلبه وهو يعد على أصابع يده بطريقة حازمة مملوءة باللطافة :

ــ أولا : أنا أحتقر كل رجل يطمع فى مال زوجته ، وبناء عليه فأنت حرة فى تدبير أموالك ، وثانيا : أنا فىّ عيب واحد يجب أن تعرفيه منذ الآن حتى لا أغشك ، وحتى لا ألام فيما بعد . سأقوله لك بكل صراحة لأن هذا يترتب عليه سعادة حياتنا الزوجية ، فهل من الممكن أن أقوله بصراحة ستكون طابع حياتنا معا ؟ .

فتقلصت شفة الست ، وشحب وجهها فصار فى بياض اللبن وسألته وقلبها يدق :

ــ وما هذا ؟

ــ هذا .. هو .. أننى « ثم رفع صوته فى حماسة » رجل شديد الغيرة ، غيور إلى حد مرعب .. فإن قبلت أهلا وسهلا .. وإلا ..

وقلب كفيه .

فبلعت ريقها وحمدت الله وأخذت نفسا عميقا ، وشعرت بسعادة لا حدود لها أوسع من الأرض والسماء . و لم تكن تدرى لماذا شعرت بكل ذلك . وما ذلك إلا لأنها نسيت عالمها الخارجى فى هذه الوهلة ، كغمضة العين التى يمن بها علينا الله فى أخريات ليل ملىء بالسقام .

فى المساء التالى أكدت أم إمام كلمة الموافقة التى حملتها من الطرف

الأول إلى الطرف الثانى ، ثم من الطرف الثانى إلى الطرف الأول . وهمست فى أذن الست بهية لتجيب عن سؤالها :

— تقولين أنه أصغر منك بعشر سنوات ، وتسألين لماذا اختارك أنت ؟

يا سلام .. تظنين أنى لم أسأله هذا السؤال حين وافق على مبدأ الزواج منك قبل أن يراك ؟ لقد قال : « إننى محتاج فى الفترة الباقية من حياتى إلى إمرأة تخاف على لا إلى إمرأة أخاف عليها .. وزيادة على ذلك فعروستى جميلة » .

فهزت الست بهية رأسها وقد أقنعها هذا المنطق .

وكان كل شيء يجب أن يعد بسرعة فهذه مطالب العريس . لكن المشكلة الكبرى لدى الست بهية كانت فى التى يبلغ بها الخبر إلى أبنائها . هل من الأحسن أن يصبحوا ذات يوم فيجدوها فى الجنة بلا سابق إنذار ، أو العكس وليحدث ما يحدث ؟

وقالت أم إمام وهى تغمز لها بعينيها :

— ولماذا لا تتولى الحاجة كريمة الأمر عند بناتك بالنيابة عنك ؟ أما ابنك فلا يجوز أن يعلم إلا بعد فوات الوقت ، وقد رأيت أنك ستتزوجين رجلا . وبهذه المناسبة لا أنسى أن أقول لك إننى حدثته عن التهديد المحتمل الذى ربما تعرضت له فى بيته من .. ابنك .

فرد وعيناه مثل النار قائلا : إذا أستطاع أحد من الناس أن يؤذيها وهى زوجتى فسأزوجها بنفسى لامرأة أخرى .. ألست رجلا ؟ هناك قانون وهناك قوة .

فأحست الست بهية أنها لاذت بأحضانه وإن كان لا يزال بعيدا ، وشعرت بالأمان والدفء اللذين يجلبان النوم لكل مكدود . فتنهدت وقالت :

ـــ الليلة يا أم إمام فسأجعل الحاجة كريمة تتوسط فى الموضوع .

واستدعت الحاجة كريمة « درية » أكبر بنات الست بهية فأسرعت إليها لأنها تعلم أنها قاضية حاجاتهم دائما عند أمها .

ودخلت معها الحاجة فى الموضوع رأسا سائلة إياها :

ـــ لقد مات أبوك منذ عشر سنوات ، وكنت أنت ابنة تسع سنوات ، وأختك ابنة سبع سنوات ، فلو فرضنا أن أمكم تركتكم فماذا كان سيحدث ؟

فردت الفتاة ببرود :

ـــ لا شيء مطلقا ، فهناك واحد كان يرعى أمرنا .

ـــ أتقصدين أخاك ؟

ـــ أقصد الله .

فابتسمت الحاجة من الشرك الذى وقعت فيه وقالت :

ـــ حسن . دعينا نتفاهم .. إن من حق أمك أن تتصرف فى نفسها بما يضمن لها الاطمئنان ، وقد اقتنعت « بالمسألة » وانتهى الأمر ، هل تعرفين معنى « المسألة » ؟ ، وهذا راجع فى الحقيقة إلى أنها تعيش بينكم قلقة باستمرار ، خائفة باستمرار ، وإلى إرادة الله قبل كل شيء .. لا تقاطعينى .. وقد رتبت لكم ما يكفل راحتكم فأنت ستسكنين مكانها فى الشقة الرخيصة الواسعة ، وأختك ، لا تزال خفيفة الحمل لأنها تزوجت قريبا ، وستعطيك خاتمها الماسى ، وهى ترجو منك أن تتولى إقناع ابنها الذى لا يعلم أحد متى سيطرق عليكم الباب ، فذلك خير من الشوشرة ، وهى بحمد الله ستتزوج رجلا له ظروف اجتماعية معينة مريحة ، غير محتاج إليها ، بل على العكس قد ترك لها الحرية فى التصرف فى مالها بعيدا عنه ، ويبدو أنه عظيم الشهامة .

وكان الصمت مخيما على المكان بحيث كانت نبرات الحاجة كريمة ترن فيه ، وبدا الاقتناع المقهور على وجه البنية ، لكن الغنائم العاجلة جعلتها تتنهد موافقة .

وعلمت الست بهية ببعض ما حدث حين دق عليها الباب ودخلت بنتها ثم جلست فى صمت ترضع طفلا وهى مطرقة نحو ثديها ووجهه ، ودموع صامتة كأنها دموع أسى ووداع كانت تلوح على خدها بين لحظة ولحظة .

وسألتها الست بهية ليطمئن قلبها الذى كان يملؤه الخوف :

— هل قالت لك الحاجة كريمة كل شىء ؟

— نعم ..

— وما رأيك فى موقف أخيك إذا ما حاول عمل شىء ؟

فنظرت إليها بنتها نظرة مثل طرف الخنجر ، ولم تعاجلهابالجواب . وكان قلب الست بهية يدق ، ويدق ، ويدق ..

— إن الدنيا بدأت تتغير من حولنا ، وإنك ستدخلين دنيا جديدة بقوانينها وناسها فلا تفكرى فيما فات .

ألهمها هذا الرد كثيرا من الشجاعة وإن شابه شىء من المرارة .

وعندما هبط المساء وجدت نفسها تتذكر زوجها المرحوم فى موقف يتكرر بين فترات . حين كانا يهبطان معا من القطار ذاهبين إلى الريف ليقضيا إحدى العطلات ، وباستمرار .. كانت ترى الست بهية على المحطة الريفية الصغيرة فى انتظارها .. مهرا أبيض .. جميل البياض ، أكحل العينين ، كثيرا ما تبختر بها بين المزارع وهى فى طريقها إلى البيت وخيل إلى الست بهية على طول الزمن أن هذا المهر قد عرفها ، وجعلت فى هذا المساء تحاول جاهدة أن ترى الخيط الذى جعل صورة زوجها الجديد ، السيد أفندى المصرى

ترتبط بصورة هذا المهر .. واعتقدت أنها قد وصلت ..

وفى شقة صغيرة عالية متوسطة الإيجار فى حى المالية الجميل الهادئ — قريبا من وزارة التموين — سكن العروسان.

وكانت الشقة عالية ليس فوقها شيء .. إلا السماء لذلك لم تكن دعوات الست بهية لزوجها وقت الضحى وهى تعد له الغداء تجد شيئا تتخبط فيه وهى فى طريقها إلى الملأ الأعلى ، فقد كانت تدعو للسيد أفندى أن يعطيه الصحة ، وأن يكتب الراحة لزوجته المشلولة ، وأن يقدرها على رضاه لأنه رجل مخلص .

وأحست بعد أسبوعين أن خلايا جديدة نبضت فى جسمها الأبيض .

واستمعت مع كل مساء إلى السمر الحلو وأحدث نكت القرن العشرين .

ثم أخذت تنظر إلى الليل الجديد نظرة عذراء استيقظت فألقت نفسها فى عش غرام ، فأخذتها لهفة خفقت بفعلها الروح من أن يزول هذا الشفق الذى يمثل حسنها ، فاتسمت أعمالها بمبالغة كانت تعجب منها إذا ما خلت بنفسها .

وكل ساعة تمر تترك فى نفسها غمرة من الحب ، وبلغت الحمى ذروتها ذات ليلة حتى كادت تهذى بحبه حين قال وهو يتأوه :

— لو أن الله يحبنا .. لو أنه يريد أن يتم علينا نعمته .. لو أنه شاء أن يحول بيتنا إلى جنة .. لأعطانى منك ولدا ذكرا فأنت تعلمين أننى لم أخلف إلا بنتين ..

ودفن وجهه فى صدرها كأنه طفل ، وأحست حرارة أنفاسه واضطرابه كأنه على وشك أن يبكى . فأجهشت هى بالبكاء إذ أحست بسعادة وتعاسة مزجتا فى كأس واحدة . ثم قالت وهى تمسح على شعره :

— لكن .. ربما .. بالنسبة لى .. يكون الأمر صعبا .

فرفع إليها عينيه الواهتين قائلا لها فى شبه عتاب ، باعثا بالأمل :

ـــ أنت إذن لا تعرفين معجزات الطب . ثم .. هناك شيء اسمه القلب .. قلبى يحدثنى بأننا سننجح .

ـــ هل نذهب لطبيب مشهور ؟

ـــ ولا تنخدعى بالشهرة ، هناك أحد أصدقائى الشبان حقق المعجزات لكثير من النساء .

ولم يبدأ فى التنفيذ على الفور ، وبعد شهرين من هذا الحديث قالت له :

ـــ أليس من حق أولادك وزوجتك المريضة أن تبيت عندهم ليلة ؟ لا تجعلهم يكرهوننى .

فقال بإكبار :

ـــ أنت سيدة عظيمة . أنا تزوجت امرأة السلطان عبد الحميد أو محمد الفاتح وسليم الأول . لماذا ؟ لا أدرى . ثم هل تعلمين أن بناتى من كثرة مدحى فيك أصبحن يحببنك غيابيا ، وزوجتى المشلولة قد لا تصدقين أنها لا تحقد عليك ، فماذا تعملين للناس حتى يحبك منهم كل سن ؟ .. هل أنت ساحرة ؟

ولم يبت فى مسكن الست بهية أسبوعا كاملا بعد هذه الليلة بحجة أن امراته الأولى فى خطر . ورفهت عنه وقدمت له ـــ وهو كاره ـــ بعض المال فأخذه فى تأفف . وحل أول الشهر فدفعت الأجرة لأن البواب دق الجرس وقدم الإيصال وزوجها غائب وهى تعلم أن زوجها فى دوامة .

ثم عاد إليها مليئا بالشوق . وانقضى شهر وقرب العيد وحالة المشلولة لم تتحسن . وأخذها وذهب بها إلى طبيب أمراض النساء والولادة ، الشاب الماهر صديقه الذى أكد لها أن علاجا منظما طويلا نوعا ـــ للأسف ـــ

سيعطى نتيجة حتمية . ونزلت من عنده الست بهية فرحة متفائلة .

وقبيل العيد دق عليها الباب وزوجها لا يزال فى الخارج ولما فتحت أبصرت أمامها فتاة لا يمكن أن تكون إلا بنت السيد أفندى المصرى . وأجهل الناس يعرف ذلك فقد كانت صورة منه ، وقالت البنت ذات الست عشرة سنة :

ـــ طانت بهية ؟

ـــ نعم يا حبيبتى .

وأشرقت ابتسامة حلوة على ثغر الفتاة ، وسألتها بأدب وأمل وكأنها تستأذن :

ـــ أدخل ؟ . أنا بنت السيد أفندى المصرى .

فخفق قلب المرأة واحتضنتها وأدخلتها إلى الصالون وقبلتها فى كل خد ، وسألتها فى لهفة عن صحة أمها قائلة : إنه لو أمرها السيد أفندى أن تذهب لتزورها لذهبت حاملة الهدايا ، ولكنها لم تفعل ما لا يأمرها به . فتنهدت البنت وهى مطرقة بطيبة ، وكفها تعبث بمنديل صغير فلم يكن معها حقيبة . وسألتها زوجة أبيها :

ـــ هل هناك طارئ ؟

فأجابت :

ـــ إن أمى تعبانه وتريد طبيبا و لم أستطع أن أذهب إلى أبى فى الديوان ، وعلى كل حال أنا أخشى أن يعاقبنى أبى على تصرفى فقد نبه ألا يأتى أحد منا إلى هنا ، لكن .. وسكتت قليلا لتقول برقة :

ـــ أنا أحبك يا طانت وكنت أريد أن أراك حتى لو آذانى أبى .. ليتك كنت أمى .



ثم عاد إليها مليئا بالشوق

وحاولت الست أن تكتم انفعالها ففشلت فقد أخذتها نحو البنية عاطفة لم تحس بها من قبل ، خصوصا عندما رأت أن جمالها أعلى من ملابسها وأن رقتها أسمى من مظهرها . فأخذتها من يدها ودخلت إلى حجرة النوم حيث فتحت صوان ملابسها ، وجعلتها تنتقى ما يعجبها من الملابس فقد كانتا متقاربتين فى الطول ، وبإصلاح بسيط لأى ثوب يمشى كل شيء على ما يرام .

ونزلت قبل أن يعود رب البيت حتى لا تغيب عن أمها ، ولم تفاجئ الست بهية زوجها بالخبر عند حضوره إلا بعد أن تغدى واستراح ، فتنهد ونظر حوله كما ينظر عظيم النفس إذا وقع فى حرج ، فقامت إليه ومالت عليه قائلة فى إخلاص :

ـــ أبعد هذه العشرة تبقى بيننا الكلفة ، مالك مالى ومالى مالك ، طيب افرض أن معك مالا واحتجت أنا إلى نقود فماذا يكون موقفك ؟

فرد ببساطة :

ـــ المفروض أننى أنفق فأنا الرجل .

فردت بحنو :

ـــ لماذا لا تفرض أننى موظفة أعاونك بشيء من مرتبى فى بيتى حتى تنتهى ورطتك ؟ افرض هذا .

فهز رأسه كمن اقتنع بعد جهد وقال لها بعينيه الواسعتين الذابلتين وهو يمص السيجارة :

ـــ يا لك من ذكية .. لقد غلبتنى .

ومنذ هذا التاريخ انفتح الكيس ، ففى أول الشهر يكون الزوج عند المريضة (ربما مصادفة) حتى يدفع الإيجار . واشترت له بدلا جديدة كهدية من حبيب ، وأفضت له بسر ما تملك : ألفان من الجنيهات فى البنك كانت

تريد أن تشترى بهما بيتا .. وخمسة أفدنة فى الريف ورثتها عن أبيها ، أما معاشها من زوجها فقد ضاع بعد الزواج الجديد ..

وكان على السيد أفندى أن يجازيها إخلاصا بإخلاص ، فإن النقود الموضوعة بلا حركة لا تكسب شيئا ، لذلك فهى إذا وافقت فإنه سيجىء لها بأحد التجار لتكتب معه عقد اتفاق وتعطيه من المبلغ ألف جنيه ليودعها فى تجارته ، وهو صاحب مكتب استيراد وتصدير يعرفه عن طريق وزارة التموين ، وهى مهمة ذات مفاجآت عجيبة ، قد ترفع فى لحظة واحدة إلى السماء ، وسيتعهد هذا التاجر أن يعطيها أرباحا شهرية تساوى عشرين جنيها .

وتهلل وجهها ووافقت ، ثم لبسا ونزلا إلى طبيب أمراض النساء والولادة الذى أعطاها علاجا جديدا ، وسهرا بعد ذلك عند أحد المهرجين المشهورين فماتت الست بهية من الضحك ثم عادا بقلب لا يخالطه هم . وقال السيد أفندى وهما يأخذان سيارة أجرة إلى حى المالية آخر السهرة .

ــ أنا متحير .. لو لم تكونى فى حياتى فى هذه الفترة القاتمة الحرجة فماذا كنت صنعت ؟

فربتت على كتفه فى هدوء ، كأنها تقول له : « لا تخش شيئا » .

وبعد أيام جاء التاجر الصديق ووقع عقد الاتفاق وشهد الزوج على ذلك ، ومرت أيام فجاءت أم إمام لتزورها وحين رأت الست بهية دقت على صدرها من المفاجأة قائلة : بسم الله الرحمن الرحيم .. والنبى عروسة بنت عشرين . ماذا جرى فى الدنيا ؟

مع أن أم إمام تعلم ماذا جرى فى الدنيا وماذا جرى فى الآخرة أيضا . وقد علمت بما عمله ابنها،لكنها لم تحك لها عنه إلا بعد أن أخذت المنح والهدايا،

فقالت لها قبل أن تهبط السلم :

ـــ ولما دق الباب فتحت له أخته فدخل مسرعا كما هى العادة ، كالحصان ، لكنه وجد أن أثاث الشقة غريب على ناظريه ، فعاد ينظر حوله ، وسأل أخته قائلا : ماذا جرى ؟ فلما لم ترد عليه ، أخذ يصرخ ويشد شعره ويقول : تزوجت ؟ .. تزوجت ؟ .. تزوجت ؟ .. دلونى على مسكنها . فهمست له أخته بكلمتين اثنتين أعادتا عقله إلى دماغه . لقد تزوجت رجلا فإذا ذهبت إلى هناك فسيموت أحدكما . فسكت . أراك بخير .

وحل ميعاد جنى الأرباح من المبلغ الذى وظفته الست بهية عند التاجر : وفى عصر يوم دق الباب فإذا بالتاجر عند العتبة . وكان رجلا كاملا وقورا يدل مظهره على أنه تاجر فى زيه وساعة معصمه ذات السوار الذهبى ونعومة كلامه ومهارة حديثه . وأدخلته الست ، وقدمت له القهوة وأخذت العشرين جنيها ووقعت على الإيصال ... ونزل الرجل بكل احترام ، وخفق قلب بهية لسير كل شىء فى الطريق القويم : زوج محب ، وتجارة مربحة بلا تعب ، وعذول غائب ، وضرة مريضة ، وأولاد ضرة يعبدون زوجة الأب ، ونهار كله انشغال باستقبال الليل فيا لها من حياة !.

ولما عاد السيد أفندى من السهرة أخبرته الست بهية زوجته بأنها جنت أول بشائر الربح فقد جاء ...

فقاطعها ووجهه محتقن بالدم سائلا :

ـــ من هو ؟

قالت فى ارتباك :

ـــ أنت تعرف من هو .

فاستطرد فى غضب :

— ودخل بيتى وأنا غائب يا ليلة سودة ! هل نسيت ما قلته لك قبل أن تدخل الفأس فى الرأس ، هل نسيت ؟

ورفع عقيرته وهو يرتعد : هل نسيت ؟ ألم أقل لك إننى شديد الغيرة إلى درجة الجنون ، لقد كنت أخاف على زوجتى الفيلة المريضة من عيون الناس ، أنا رجل ، أنا لست جزارا أعرض لحم زوجتى على الناس ، والله العظيم ما أنا بايت فيه ..

وقام يلبس معرضا عن استرضائها ، وخرج وصفق الباب .

وسهرت الست بهية فى ظلام حجرة ، و لم توقد المصابيح كما فعلت فى البيت القديم وتتركها تهتز مع الهواء ، بل جلست فى الظلام تعد نجوم الليل ، وبكت على حافة الشباك . وبكت فى الفراش ، وتقلبت طول الليل فلم يبق لها فى الحياة سواه .

و لم يعد فى اليوم الثانى ولا الثالث ولا الرابع ، وهمت أن تذهب إليه فى الديوان فخافت من الأخطاء الجديدة . ودق الباب عصر يوم فرأت الفتاة اللطيفة ... بنته فقبلتها . وشمت فيها رائحة أبيها المحبوب ، وجلست البنت الطيبة مطرقة إلى الأرض تعبث بالمنديل الصغير ولا تتكلم . وقالت لها بهية :

— كيف حال والدك ؟

— مرتفع الحرارة منذ أربعة أيام ، ولا يستطيع أحد أن يكلمه ، وقد بعثنى إليك لأرى إذا كنت محتاجة شيئا ؟

فوارت السيدة دموعها عن الفتاة ، وقامت فى صمت فأحضرت لها حقيبة يد لطيفة وأعطتها بعض المال لها هى وقالت لها :

— أخبريه أننى قلقة عليه .

ثم قبلتها فى حنان وودعتها حتى السلم .

وبعد عشرة أيام جاء الفرج ، وكان متمثلا فى دقة السيد أفندى على الباب وارتمت المرأة فى أحضانه وأجهشت بالبكاء كأنها انتشلت حبيبا قبل أن يأخذه الموج . وجلسا يتعاتبان . فلما اتهمته بالقسوة قال فى ثقة وتأنيب وعتاب :

— لا بل أنت تتهميننى فلو كنت غير محب لك ما حدث هذا كله .

وعاد نور الليل وضياء الحياة من جديد ، ونسيت الست آلام الأيام الماضية ، وفى الصباح حملقت فى التجعدات والصبغة الباهتة ، وأحست أنها أصيبت بهوس الحياة ، لكنها كانت مركزة كل أفكارها فى هذا الرجل الذى أحبته .

ولكيلا يحدث اختلاف من جديد جعلته وكيلا رسميا فى أخذ العشرين جنيها كل شهر ، وتخلصت من كثير من حليها لتوفر الراحة فى البيت .

ثم لاذ السيد أفندى بالصمت بعد أن أصبح وكيلا فى أخذ المبلغ فلم يقل لها شيئا . بل كان يلمح بين حين وحين أن الإنسان كثيرا ما يأكل الميتة إذا كان مضطرا ، وأن كل قرش يدخل ذمته من حسابها مكتوب محسوب . ونسى السيد أفندى الموظف فى وزارة التموين أن مئونة البيت كانت عبئا على الست بهية التى كانت تأخذ من نقودها الباقية لتملأ له المخزن بالخيرات .

على أن الست بهية ركبتها الوساوس بعد مرور عام ، بعد أن نسى الناس قصتها ، وفترت حماسة اللائم والموافق ، وكان السيد أفندى غائبا عن البيت . فأخذت تفرض أن الأمور سارت هكذا ... هكذا حتى يضيع كل شىء ، ثم لخلاف من الخلافات التى تحدث ينفصل كل منهما عن الآخر فماذا يكون المصير ؟

ومصمصت بشفتيها وهى منفردة ، فسمعت صوت شفتيها ثم قالت

فى نفسها : إننى حتى اليوم لم أذق طعامه . كل ما أنفق كان من مالى ، فهل من الضرورى لنعيش عيشة صحيحة أن تموت زوجته ؟

وعزمت على أن تقول شيئا ما عندما يعود . أن تسجل أى اعتراض لا لشىء إلا لتنجو من ملامة نفسها لنفسها إذا كان لا سمح الله هناك مستقبل مظلم .

وحدث ذلك ذات ليلة . فقد جمعت الست بهية شجاعتها وقالت له :

ـــ أنا لست أعرف لحياتنا المالية أولا من آخر . ماذا سنعمل (ومصلحتنا واحدة طبعا) إذا أردنا أن نشترى بيتا أو قطعة من الأرض .. ؟ أنا ..

فانفجر البركان . لكن قبل أن ينفجر ركز عليها عينيه اللئيمتين لمدة دقيقة وكأنه يقول لها : هكذا انتن ... ما كنت أنتظر منك ذلك . ثم انفجر يقول :

ـــ هل من الضرورى أن تعلمى علاقتى بكل الناس ؟ . كنت شريكا لأحد التجار بطريقة من الطرق لأن ذلك ممنوع على الموظفين . وفى الوقت المناسب سترين أن المبالغ التافهة التى دخلت فى ذمتى لا قيمة لها . هل تظنين أننى معتمد فى حياتى على الوظيفة فقط ؟! لو كان ذلك لرأيت بناتى يتسولن عند جامع السيدة ، و ...

وكانت السيدة بهية مقتنعة قبل أن تقتنع . كانت تريد أى كلمة ترتكن عليها مثل الغريق الذى يبحث عن القشة . فهمت بالاعتذار له لكن الزمام كان قد أفلت حين قام واقفا وقال بحركة مسرحية رائعة :

ـــ أنا لا أستطيع أن أفهم مما قلته لى يا ستى إلا معنى واحدا ...

ـــ هو ؟

ـــ هو أننى رجل يعيش على أموال النساء وهذا شىء أفضل عليه الموت اختناقا . سلام عليكم .

ولبس حلته وخرج .

وطالت الغيبة ، واشتدت الوحشة على الست حتى كادت تخنقها . وبعد شهر أو يزيد دق الباب فهرولت تتعثر فى خطواتها وأحست أن نبض قلبها نبض مرض لا نبض حب ، وعلى الباب وجدت بنته اللطيفة .

وجلست مطرقة فى أدب و لم تنبس ببنت شفة . حتى سألتها الست عن صحة أبيها فقالت الفتاة وفى عينيها دموع :

— هل أنتما مختلفان يا طانت ؟

— نعم يا حبيبتى .

— ليتك أمى ! لو كنت أستطيع أن أناقش أبى لاشتبكت معه فى عراك من أجلك .

وسكتت لحظة ثم قالت :

— وأنه قد أرسلنى لأرى ما إذا كنت محتاجة لأى طلب .

— شكرا يا حبيبتى . قولى له إننى مريضة ، وأريد أن أذهب إلى طبيبين ... واحد يعرفه ، والثانى لم يعرفه حتى الآن .

ومنحتها هدية مناسبة وودعتها حتى الباب .

وقبيل منتصف الليل حين كان القلق والوحدة يمزقان نفس الست دق الباب فقامت خائفة ، لكنها وجدته هو .. هو بلحمه ودمه . ووقف فى الصالة تحت المصباح تماما وقال لها باختصار جاد لكنه يشى بالحب :

— هل أنت حقيقة مريضة ؟

فنظرت إلى وجهه وهى تلتصق فيه قائلة :

— هل أنت مهتم بى ... هل أنت مهتم بى ؟ ..

وعندئذ جلس ساهما واضعا كفه على جبهته كمن يحل لغزا ، ثم قام

فى صمت .. إلى حيث خلع ملابسه ، وبات فى مخدعه حتى الصباح .

وبعد هذه الحادثة لم يعد التحدث فى شئون المال أمرا هينا بالنسبة لها ، فضلا عن أنها تحس نحوه بالحب . وإذا حاول خاطر سيئ أن يناوش قلبها طردته بسرعة ، كما تدفن النعامة رأسها فى الرمل .

ومرت الأيام .. ولم تنجب ولدا ولا بنتا .. وضاعت النقود والذهب وبقية الحسن . وخمدت أنفاس لافحة كانت تحسها من زوجها ... ربما بفعل الأيام ، لكنها عزت سر ذلك إلى غروب الحياة فيها ، فحاولت بكل جهد أن تحافظ على التوازن كما يؤخر الطبيب وقت الاحتضار بحقنة الكافور .

وعادة ... تأتى أمثال هذه المحاولات بنتائج عكسية ، تثير الرثاء فى قلب الرجال ، لكن الست بهية كانت تنتقل من محاولة إلى أخرى ، بطريقة لا تعرف اليأس .. كأنها ... ليست زوجة .

وتراجع كل شيء حولها . تراجع الحب ، وتراجع الإيراد وتراجع الباقى من العمر ، غير الأشياء التى ضاعت ، وكان أهمها معاشها الذى كان كفيلا بأن يصون كرامتها حتى تموت .

وأحست الست بهية بحسرة صامتة ، وخوف من نوع جديد لا تجرؤ على أن تبوح به لأحد إلا للشخص ذاته الذى تخاف منه . للسيد أفندى المصرى زوجها .

وفى مساء إحدى الليالى كان الزوجان فى الخارج ، وكانت الزوجة واقفة عند باب إحدى الصيدليات وهو فى الداخل بانتظار إحضار دواء . ومرت على الست بهية امرأة تعرفها . اندفعت كل منهما نحو صاحبتها تقبلها ، فقد كانتا تلتقيان أول كل شهر فى خزينة المعاشات .

وقالت السيدة للست بهية :

ـــ علمت أنك تزوجت فهل أنت سعيدة ؟

فهمست تشير إلى زوجها الواقف على مقربة منهما :

عندئذ بدت الدهشة على وجه السيدة الأخرى وقالت وهى تكاد تجرى :

ـــ عرفته ... إنه ... أليس هو ذلك الموظف بوزارة التموين ؟ كان المفروض أن أكون أنا مكانك عنده ... فهو متخصص فى الإيقاع بالأرامل اللاتى يملكن شيئا ...

وجرت السيدة كأنما قبل أن يصيبها مكروه .

وفى هذه الليلة باتت كلمات الحب فى نظرها أشبه بأقراص الشمع الخالية من العسل ، وسمعته يحدثها عن أرضها فى الريف وأن المساكن فى المدينة أصبحت أحسن ما يستغل فيه المال .

ووقف الحديث عند هذا الحد .

وخرج السيد أفندى المصرى صباحا ، وذهب إلى مكتبه فى وزارة التموين ، ولبست الست بهية ملابسها وخرجت فى شجاعة ، وركبت .. ثم نزلت .. ثم طرقت باب الشقة فى حى وطنى ملىء بالأقذار ، وفتحت الباب امرأة ذات سنة ذهبية قد لفت على عنقها منديلا أحمر اللون كأنها مريضة باللوز وحملقت فيها المرأة واعترضت سبيل دخولها ، لكن الست بهية دخلت إلى الصالة ، عندئذ وقع نظرها على كل شىء خصوصا على تلك الفتاة اللطيفة بنت الستة عشر عاما ، التى كانت قطعة حقيقية من والدها السيد أفندى ، وجاءت البنت تضحك وارتفعت ضحكات المرأة الأخرى ، ولما سألت بهية بسذاجة :

ـــ أين زوجة سيد أفندى ؟

قالت لها المرأة بصوت عالى الدرجة كأنه صراخ :

— أنا يا أختى ... ولا مش قد المقام .. أعمل لك قهوة ولا ينسون ولا حلبة ...

وكانت واقفة ترقص ، فقامت الست بهية فى صمت لتنزل السلم وانتظرته فى البيت وقالت له :

— عرفت كل شىء فقد كنت فى زيارة بيتكم .

فقهقه كأنه سمع نكتة ، وقال وهو يصفق :

— وهل كان من الضرورى أن أكون زوجا لفيلة حتى تكونى راضية عنى وعن ضرتك ؟ ، ها أنت قد رأيت أنك خير منها .

ثم غضب قائلا :

— ومع ذلك من أذن لك أن تفعلى هذا ؟ .. لقد بدأت تثيرين المتاعب فى طريقى . وداعا .

ولم تسمع إلا صفقة الباب .

ودخل الليل وهى تفكر . كانت النجوم ساطعة فى ليلة خريف والشباك مفتوح ، والجو مائل إلى البرودة ، وهى جالسة فى الظلام تبحث عن أول الطريق . سيتذكر اللائم لومه وسيندم المتحمس على ما فعل . وأخذت تبحث عن العلة فى نفسها فوصلت إلى أن « الساذج أو الطيب القلب إذا كان راغبا فى شىء ما رغبة شديدة فإنه لا بد أن يلقى مصيرا لا يرضيه » .

أين السكن القديم ؟! .. أين المعاش ؟ .. لكن الحمد لله فهناك إيراد الأرض . أما التاجر فقد توقف عن الدفع منذ دب الخلاف وإن أخذت من زوجها حقا فى قبض المبلغ . وهل هناك ألف جنيه تعطى عشرين جنيها فى الشهر ؟ .

لقد كان قرضا سدد على أقساط أخذها الزوج نفسه وكانت أم إمام

شريكة فى الخديعة ، فقد باعت هذه السيدة التى أكرمتها كما يباع لحم البقرة الحلوب إذا وقعت تحت السكين .

وذات ليلة بعد أن هجع الناس وقفت سيارة تحمل بقايا متاع .. وخلفها امرأة مهدمة هى الست بهية . ولما طرقت باب المسكن القديم ورأت ابنتها نفسها أمام الأمر الواقع ، دخل كل شىء فى صمت كما يزاح التابوت بلا بكاء .

وانزوت المرأة فى إحدى الحجرات وقبل أن تقفل عليها بابها سألت :

ـــ ماذا ستفعلون بى ؟

فقالت البنت فى هدوء :

ـــ وهل ترك الزمن شيئا يمكن أن يفعل معك حتى نفعله نحن ؟ .. استريحى فإن التعب باد عليك .

الضفيرة السوداء

الجنينة الكبرى وحدها التي بقيت ... أما المبنى الذى كان قائما فى وسطها فقد هدم .. ولا تزال بقايا الجدران بين الأشجار أطلالا توحى بالتغير ، والشبابيك والأبواب ذات الشراعات مخلوعة ومسندة إلى نخيل الزينة ، تنتظر عربات النقل التى ستحملها لتباع فى الريف ...

وغاب عن البوابة الحديدية السوداء حارسها الضخم ، وفتحت فى السور فجوات دخل منها صبيان الحى الوطنى القريب إلى أرض الحديقة ...

وبينما كان أحد الصبية يحلم بأن تكون أسرته ضمن سكان البيوت التى ستبنى على أرض الجنينة ، كانت فتاة قد جاوزت الرابعة والعشرين من عمرها تنظر إلى هذه المعالم ، وقد جلست على شاطئ النيل .. الشاطئ الآخر .. تحت إحدى الأشجار الضخمة التى تظلل سوره المنحوت من الحجر الأبيض . وكان الوقت أصيلا ، والشمس قد اختفت وراء الأشجار ، والفصل خريف . وعند أقدامها تساقطت أوراق انقضى عمرها .. ومع صوت ناى انبعث من الراديو عبر الشارع أرسلت الآنسة تنهدا عميقا .. فقد كانت تتذكر .. طالما لعبت فى هذه الحديقة .. مرات لا تحصى . وكانت فى العاشرة من عمرها ، وكان جسمها النامى فى هذه السن يوحى للكف أن تمتد إليها ، كأنما لتلمس شيئا على وشك أن ينضج قبل الأوان ، وكانت ضفيرتها السوداء ، وفستانها القصير ، وشفتها المكتنزة مع فمها الصغير ، ولونها الزاهى ، وحواجبها الوحشية التى تشبه حواجب الصبيان — كان هذا كله مثارا لاهتمام الناس . وتذكرت يوم كانت تعبر أحد ممرات هذا المسكن ،

وإذا بها تفاجأ بمنظر فتاة فى مثل عمرها .. ظهرت فجأة .. وفى طرفة عين أحسست هى بذعر وذهول لجمالها ، وأخيرا يا للعجب .. كل هذا فى طرفة عين .. ثم ما لبثت أن استغرقت فى الضحك .. لأنها اكتشفت أنها وحدها فى الممر .. وأن الصورة التى لمحت لها فجأة ، كانت خيالها فى إحدى مرايا البهو .

ومنذ ذلك اليوم أحست أنها جميلة ..

ولم يكن هذا بيتها ..

كل ما فى الأمر .. أن أمها كانت فيه ..

ومن تكون أمها ؟

إنها امرأة يحتفظ بها فى هذا المكان على سبيل التذكار بعد أن تحولت من مربية إلى رئيسة خدم . فقد ربت لهذه الأسرة بنتا وولدا . أما البنت فقد تزوجت «آه .. تزوجت » .

ووقفت أفكار الآنسة عند هذا برهة صغيرة .. كانت الشجرة تخشخش فوق رأسها بأوراق بعضها غض ، وبعضها يابس ، واثنان من الشبان يعلو نقاشهما على خشخشة الورق ، يتكلمان عن الفيضان العالى .. وافتتاح المدارس .. والحب .. وأشياء أخرى لم تدرك معناها ..

ثم عادت الآنسة إلى حيث وقفت أفكارها ...

نعم تزوجت .. كانت سمراء ، جافة العود ، ذات شعر كثيف لا يطول أبدا . لقد طالما شدتها من ضفيرتها ، وقالت لها وهى تعض أسنانها : « هاتى هذه الضفيرة يا سميرة .. هاتيها لى .. آخ » ، وتمنت فى هذا الوقت لو أعطتها الضفيرة ، لأنها حتما سينمو لها غيرها . وتزوجت شابا كأنه البدر .. رأتهما سائرين فى الحديقة معا ، هو يهمس لها ، وهى تصرخ فى وجهه ، والدم يكاد ينبثق من أذنيه وخديه ورقبته ..

« كل هذا لا يهم .. نعم .. » وسألت نفسها : « أهو غير مهم لأنه مضى ؟ . ولكن كيف ؟ .. وهل مضى الحوادث يخرجها من دوائر الأهمية ؟» .

وهزت رأسها بالنفى ، ولمعت مصابيح الشاطئ الآخر قبل نزول الظلام . وكأنما طاب للآنسة أن تتخيل مواقع الحجرات التى عرفتها فى هذا البيت ، الذى سيتحول إلى بيوت .. إلى ثلاثين على الأقل .. وكل بيت من عدة طوابق .. وكل طابق فيه عدة أسر .. « لكن .. آه .. لم يكن فى هذا البيت غير أربعة أفراد غير أمها المربية . نعم . كانت السيدة الأم تقيم فى هذه الناحية حيث تستطيع وهى فى الحجرة العليا . أن ترى لسان الجزيرة حيث يتسع النيل فى أبهة وخلود . نعم .. وطالما جلست تحت شجرة تنظر فى الساعة لتضبط ميعاد تناول الدواء . أما السيد الأب فقد كان يقيم هنا .. هنا .. حجرته تطل على نخل الزينة ذى السيقان التى كأنها صبت من الرخام » .

وتذكرت الآنسة أنها سألت البواب يوما عن نوع البلح الذى يثمره هذا النخل ، فضحك وقال لها وهو يهز رأسه : إنه لا يثمر .. إنه لا يثمر .. (ثم استطرد) نخل البلح فى الحقول يا سميرة .

وخيل إليها أنها تسمع صوته ، وقبل أن تغيب نبرته الغليظة عن خيالها سألت نفسها « ترى أين هو الآن ؟ » .

***

نعم .. طالما لعبت فى هذه الحديقة . وكانت قبل أن تنزل إليها تحس بقرصة شديدة فى أذنها من يد أمها .. فتنظر سميرة إلى وجه الأم فتجد الطيبة والوداعة قد غابت عن بشرتها البيضاء ، ولبس وجهها صرامة وجه الحارس وهى

تقول لها فى همس وطرف أذنها لا يزال بين أصبعي أمها :

— سميرة .. احذرى .. فاهمة ؟

كانت فى الرابعة عشرة من عمرها فى ذلك الوقت ، وكانت تأتى لزيارة أمها .. تأتى من البساتين حيث تقيم مع جدتها لأمها وخالها الموظف .

وعندما كانت تنزل إلى الحديقة كانت تسير وهى نصف مغمضة .. أحلام الصبايا تثقل عواطفها مع شئ آخر .. هو فى الواقع سؤال عن سر تعاسة الوجوه التى تراها فى هذا البيت .. إنهم ينادون على الناس بالصراخ ، وعلى ملامحهم قلق لا يبرح . وحتى الشابة التى تزوجت وتمنت فى اليوم السابق لزفافها أن تأخذ مع الجهاز ضفيرة سميرة كانت تصرخ فى وجه زوجها .

« لكن.. آه.. لماذا تحذرنى أمي باستمرار ..؟ إنها خائفة على من شيرين.. مع أنه يبدو شابا طيبا .. وماذا عسى أن يصنع لو أنه التقى بى يوما ما ؟» .

لقد ألقت على نفسها هذا السؤال منذ عشرة أعوام قبل أن يهدم هذا البناء ، وتستعد الأشجار لإخلاء مكانها للسكان .

كان اليوم يوم جمعة .. لقد ظلت تذكره .. يوم جاءت سميرة للقاء أمها ، لتحمل إليها أنباء جدتها المريضة ..

وكانت فى الحديقة تمشى كعادتها وتسأل نفسها الأسئلة الخالدة : « لماذا يصرخون فى وجوه الناس هكذا ؟» .

ومن خلال هذا السؤال سمعت همسا آتيا من إحدى الخمائل،فانتفضت وتلفتت حولها، كان شيرين أمامها وجها لوجه بعد أن ظهر من خلال الأشجار، فرفعت يدها بطريقة لا إرادة فيها وأهوت بها على .. على أذنها .. كأنما لتدفع ألم قرصة حاده شعرت بها لتوها ، وأحمر وجهها حتى صار فى لون الشفق فى الوقت الذى كانت ابتسامة ذات معنى تولد تحت الشارب الوليد :

ـــ لماذا أنت خائفة .. هل أنا مخيف ؟

وهزت رأسها بالنفى و لم تتكلم . وهمت أن تسير فأمسك بكفها ودنا منها يقول بصوت يشى باضطراب النفس :

ـــ لو أنك هذبت هذه الحواجب .. لأصبحت مثل حسان باريس .. آه .

كانت هناك أذن تسمع من بعد غير شاسع ، صاحبتها ضجرة تعيسة ، وكانت هى أمه ..

كانت فى نافذة غرفة الزينة توارى شحوب المرض والشيخوخة بألوان وتذكر الشباب ومرحه والحب وسكره فى الوقت الذى تناهى إليها همسه . فأطلت من خلال الأغصان التى زحمت فتحة الشباك ، ونادت بأعلى صوتها :

ـــ شيرين .. شيرين .. إن والدك يبحث عنك .

وفى هذه اللحظة طفرت الدموع من عينى سميرة ، و لم تكن تدرى هل أنقذها القدر أم هل قد أساء إليها .. ؟ وتحول الشاب بلا مبالاة يدور حول البناء ليصل إلى الباب ، ورأته من خلال دموعها كالأشياء بعد اليقظة من الإغماء .

وتذكرت فى وقفتها الجامدة أشياء لا تحصى .. وانتقلت وخزات القرص من غضاريف الأذن إلى شغاف القلب .. وأدركت فى هذه اللحظة أنها كانت موضع طمع .. كما كانت أخته تريد ضفيرة فكان هو يريد ما يشتهيه الرجل . ثم اجتهدت فى كفكفة دمعها وكبت حزنها ، ودارت من باب آخر لتصعد إلى أمها .

كان السلم مسقوفا ، على مسقطه جمالون من الزجاج السميك ، وفى

أعلى الحائط الغربى تحت الجمالون نافذة كبيرة من الزجاج الملون .. فيها كل ألوان الطيف . وكانت فى هذه اللحظة ترمى كل الدرجات العليا بألوان زاهية مثل ريش الطاووس ، ولم تر منها سميرة إلا اللون القاتم .. وكان الجمالون ومسقط السلم يعكس مع ذلك شيئا آخر .. هو صوت السيدة ربة البيت ..

كانت تصيح كما يصيح المنهوب مستنجدا ، وفى دهشة العجب خيل إلى الآنسة أنها فى حلم ، لأن القصة التى حدثت فى الحديقة كانت مثار ذكريات كلها أسى . ومثار اتهامات وشبهات صبتها السيدة على وجه المربية .

كانت سميرة على آخر درجات السلم والصوت آت من البهو من أقرب مكان من الباب ، بحيث لو دخلت الفتاة لالتقت بالخصوم وكانت نبرات السيدة تخرج عالية رفيعة مرتعشة آخذة طريقها إلى الباب حيث يردد صداها مسقط السلم ، فيبدو الصوت لها جهيرا عاليا ..

ثم سكت كل شىء فجأة ، واستطاعت الآنسة أن تعرف السبب ، فقد ظهرت أمها من الباب دامعة العين ، وهبطت دون أن تلقى على بنتها نظرة ، وتبعتها الفتاة فى صمت .. وكان هذا آخر عهدهم بهذا المكان قبل أن يهدم ..

* * *

وهذه حديقته تبدو أمام عينيها الليلة ، أشجارها واقفة فى انتظار الفأس ، والنيل يتدفق فى فيضان عال ، ونسيم الليل يخشخش بالأوراق كأنها جلاجل ، وبدأت زحمة الشاطئ تخف نوعا . وكان بين المصابيح على الشاطئ الثانى مصباح منطفئ بين اثنين فاتسعت المسافة المرسومة بنظام هندسى ، فحملقت فيه الآنسة وتذكرت أمها .

كانت منطفئة مثل هذا المصباح ليلة طردت من خدمة هذه الأسرة ،

و لم تستطع النظر إلى بنتها بعد أن وصلتا إلى البيت . وكانت تعليقات جدتها العجوز على الموقف غمغمة غير مفهومة ... تحمل أحيانا طابع الاتهام وأحيانا طابع البراءة . لكن اسم شيرين جاء خلال حديث الجدة .

وشهقت الفتاة وضاقت بثرثرة العجوز ... هل حساب السنين (ودعنا من العلاقات الروحية بين الناس) لا يدخل عند بعض الناس فى حساب الشهوات ؟

وتحول الموقف بين الفتاة وأمها إلى شيء لا يمكن أن يلمس إلى أن ماتت الأم بعد ذلك بخمسة شهور ، ودعتها الجدة وهى فى مكانها لأنها لم تكن تستطيع النهوض ، ثم عاشت على ذكراها بضعة شهور .

وتذكرت سميرة وهى فى مكانها على النيل تعد المصابيح المضاءة على الشاطئ الآخر . وتتوقف كلما مرت على المصباح المنطفئ — تذكرت ليلة قالت لها جدتها :

— ما أجمل شعرك يا سميرة .. كان لى مثله وأنا صغيرة .

فتأوهت الفتاة وذكرت أخت شيرين ، فقالت عمدا :

— كانت أخت شيرين تتمنى أن يكون لها مثل شعرى يا نينه ..

فأطرقت الجدة ونظرت فى حجرها ، ثم استطردت تثرثر :

— شيرين !! آه .. لقد طرق هذا الأحمق الباب فى إحدى الليالى على مربية أخواته ..

— ثم ..

— فتحت له أمك فدخل ، وعند ذلك .. ماذا تستطيع أى امرأة أن تعمل ؟ الدفاع فضيحة ، والتسليم محنة ، فماذا تختارين لو كنت مكانها يا سميرة ؟



أحلام الصبايا تنقل عواطفها مع شئ آخر

وسكتت الجدة ، وأخرجت من جيبها سبحة ووضعت القهوة على موقد الكحول و لم تتكلم ، وأز الماء للغليان ببطء شديد وسميرة تفكر .. حقيقة ماذا كانت تستطيع أن تعمل ؟

وجاءها الحل من فم جدتها وهى تشرب رشفة من فنجال القهوة .

قالت له المربية بهدوء وهى تحبس دمعها : « أنتم لا تأتون إلينا . الواجب أن نذهب نحن إليكم .. اذهب إلى فراشك وسأتبعك » .

ثم أغلقت بابها من الداخل بعد أن خرج ، وسهرت ليلتها فى البكاء والدعاء .

وفى اليوم التالى لم يلتق بها ، وفى نفس اليوم كانت المربية تفكر فيمن تشكو إليه شيرين . لكنها أحست أن الشكوى دفاع ، والدفاع عدوان فى بعض المواقف فسكتت .

وفى المساء التالى لم تذق المربية طعم النوم . كانت كالمحكوم عليه بالإعدام وهو يفكر فى ساعة التنفيذ ، يخافها ويشتاق قدومها ليرتاح ..

وسمعت نقرا على الباب فكذبت أذنها ، وأخذت الأشجـــار تحف فى الحديقة فغطى حفيفها على كل شيء . لكنها تسمع دقات قلبها،وسكت النقر لحظة فتوقعت أن تسمع وقع أقدام تبتعد ، لكن النقر أصبح أكثر ارتفاعا ، وتحول إلى دفع للباب . فقامت لتشعل النور ، ولكنها لم تجد .. نورا .

ومن خلال نافذة خلفية رأت الظلام مطبقا على كل شيء،فقد انقطع التيار الكهربائى من الحى كله .

وعندما رأى الشاب هذا المنظر الكئيب زحف إليه الخوف واليأس ، فتسلل راجعا يلتمس طريقه محاذرا أن يسمع أحد وقع أقدامه .

وعند باب حجرته اصطدم فى امرأة فأمسك بيدها وقال هامسا :

ـــ هل جئت ؟ .. لماذا لم تجيئى ليلة أمس كما وعدت ؟

ـــ كنت أحسب أن فى حجرتك شمعة .. لكن لم أجدك و لم أجد شيئا .

وكان الصوت صوت أمه ، فدخل سريعا وأغلق عليه الباب و لم تعر الأم الموضوع اهتماما .. نسيته فى الصباح ، لأنه ابنها وليس زوجها !! نعم .. هذا رأيها ووجهة نظرها . أما موقف ابنها مع الفتاة فإنه لا يخلو من خطر .. أليس من الجائز أن تصبح زوجة له ؟

لكن الابن عدل عن مشروعه بعد هذه العثرة ، وإن ظلت أمه تحمل اعتقادا خاطئا على مر الأيام .

وانتبهت سميرة فجأة على أضواء ساطعة تلمع بين أشجار الحديقة ، كانت منبعثة من ثلاثة كلوبات تتحرك خلال الشجر . وسمعت محركات سيارات نقل .. وأصوات أخشاب تتكدس . فعلمت أن الأوان قد آن لتحويل هذه الجنينة إلى بيوت ، وشعرت أنها تستطيع أن تسكن هناك . لأن مرتبها ومرتب خطيبها قادران على ذلك ..

فقامت تتمطى لأن الجلسة قد طالت ونسيم الليل قد خالطته البرودة ، وكان فى نفسها أمل .. أمل أن تطل نوافذها على لسان الجزيرة حيث يتسع النيل هناك فى أبهة وخلود . ومن نواحى « مقياس الروضة » تهب على القلب نسمة جديدة .

عندما يعود

لم تكن تدرى لماذا تذكرت الليلة الأولى التى رأت فيها « سمير » ؟

كانت ليلة من ليالى الصيف مخنوقة الأنفاس شديدة الرطوبة . وكانت هى وحدها فى الشقة تلبس ثوبا خفيفا أبيض ، والخادمة ساعتئـذ كانت فى الحمام . ولما دق جرس الباب دقات عرفت فيها يد أخيها ، أسرعت تفتح . كان برفقته شاب أنيق لم تجعله شدة حرارة الليلة يتخلى عن قطعة واحدة من الملابس حتى رباط العنق .

وحياها فى هدوء قبل أن يدلف هو وأخوها إلى أقرب باب من مدخل المسكن حيث تقع حجرتان صغيرتان ، إحداهما داخل الأخرى امتلأتـا بالكتب ، وقطع الأثاث والتحف ، وأسطوانات موسيقية تفرغ ألحانها تحت أضواء ملونة تنبعث من مصابيح جانبية .

وتكررت النظرة ساعة الخروج بعد السهرة القصيرة التى قضاها الشابان معا ، وخرج « سمير » مخدر الأعصاب ، لين النظرة ، كأنما علق سحر الموسيقى بأهداب عينيه السوداوين .

والتقيا عند الباب مرة أخرى وكان ذلك بمحض المصادفة كانت وقفتها فى فتحة الباب بالضبط تأخذ من البائع زبادى العشاء ، وقد عقصت شعرها إلى أعلى من شدة الحر . وتراجعت فى شىء من الارتبـاك لتـفسح الطريـق للخارجين . وألقى عليها التحية ، فأحست أنها تشق الطريق نحو قلبها .

ونمت العلاقة بين الأسرتين بعد ذلك بقليل بعد أن كانت قاصرة على الشابين فحسب . إذ لم تمض على هذا اللقاء عشرة أيام حتى حضر المهندس

« سمير » بصحبة أمه ، ورفرف جو من المودة على الضيوف بفضل أصحاب البيت الذين شعروا أن كلمة جميلة محبوبة ستخرج عما قريب من فم « سمير » يطلب بها يد « عنايات » من أخيها ..

وشغلت الفتاة بهذا الحلم ، وأحست بينها وبين نفسها أن شيئا من القلق يشوب ليلها باستمرار إذا ما حضر « سمير » لزيارتهم يوما ما . لكن قلبها الذى عانى كان يشعر أن شوطها لن يطول ، ولن يكون هناك عذاب ولا أرق ولا دموع من تلك التى يعانيها الناس فى صمت مذل ، كأنها جروح داخلية لا يشعر بآلامها إلا من يعانيها .

* * *

وأدارت « عنايات » ماكينة الخياطة لتفرغ من تجهيز ثوب صغير لطفلها الثانى ، وابتسمت لنفسها ، وهزت رأسها تتعجب : لماذا تذكرت القصة من أولها ؟ حتى لكأنها الليلة فى بيت أبيها ، وأمها المشلولة نائمة فى الحجرة الداخلية هناك على مقربة من الحمام ، وعيناها المخنوقتان ضائعتا النظرة فى الشباك الخلفى المفتوح حيث تهتز أمام المريضة نخلة وحيدة تقطع عمرها فى سكون. وذكرت « عنايات » حجرة المكتبة حيث كان « سمير » يقطع جزءا من الليل مع أخيها ، وحيث كانت تدخل بعد خروجهما ، فتفرغ منافض السجاير من الأعقاب وتقف برهة لتفرق بين النوع الذى يدخنه أخوها والنوع الذى يدخنه « سمير » . وذكرت الليلة التى ألمت فيها بأمها إحدى الأزمات ، فحضر « سمير » عقب علمه ومعه طبيب مشهور كان من أصدقائه ، وعلى وجهه أمارات حزن ورغبة فى أن يهب أمها — من أجلها — أى شىء لتعيش ..

وتوقفت أفكارها عندما بكى الطفل فى الداخل ، فقامت لتعطيه من حنان الأم ، حتى إذا ما عاوده النوم رجعت إلى ماكينة الخياطة لتكمل عملها .

وامتلأ سمعها بالأزيز حتى تشبعت به ، فأحست بعد مدة كأنه خرير ماء ، أو لغط موج مترادف ، وأنها سابحة فيه وكلما انقطع الأزيز ، أطبق عليها السكون وترادفت الأفكار واتضحت كأنها حروف لافتة كبيرة .

* * *

و لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء على الرغم من الهدوء الذى خيم على الضاحية ، وفتحت « عنايات » النافذة فرأت منظر الخريف فى طبقات الجو وعلى رءوس مصابيح الشارع المنداة بالضباب ، وسمعت نسيم الخريف كذلك يئز فى الأشجار ، فبقيت مطلة من شباكها العالى على هذا العالم الساكن ملقية ببصرها إلى الدراجات الكثيرة التى تدخل إلى الضاحية وعليها ناس قضوا أوطارهم فى المدينة .

ودقت ساعة على مقربة منها تعلن منتصف التاسعة فتذكرت « سمير » زوجها فهتفت بما يشبه كلام الذين يحلمون :

ــ أسعد الله مساءه .. لقد وصل إلى بنى سويف منذ ساعة .. ولعله الآن فى فراشه بعد أن تناول عشاءه فى المطعم .. لقد أصبح « سمير » كثير الأسفار فى المهمات الحكومية .. آه .. كان الله فى عونه .. إنه يتعب .

وخيل إليها أنها تسمع بكاء فى الداخل فتركت النافذة وتحركت نحو باب الحجرة فلما وجدت السكون مخيما على المكان كما تركته رجعت إلى الشباك لتقطع الوقت .

ومن خلال غصون إحدى الأشجار كان أحد مصابيح الشارع يظهر



وقالت فى نفسها « أسعد الله
مساءك .. ليتنى معك ياحبيبى »

لعينيها ويختفى كلما هبت نسمات الليل فأخذت تتأمل المنظر ، ثم أحست بألم فى ضلوعها فتذكرت سببه .. ساعة احتواها زوجها بين ذراعيه بعنف قبل سفره بساعة فكاد يحطم ضلوعها .. ثم ودعته إلى الباب وهى تتألم ، وأسرعت إلى النافذة — التى تقف الآن فيها — ورأته وهو يعبر الشارع . وانسربت دمعة على خدها حين رأته يتلفت نحو مسكنه وهو عند المنعطف قبل أن يغيب عن بصرها فكأنما أحس قلبه أنها فى الشباك . وعادت تهمس بما يشبه كلام الذين يحلمون :

« ليتنى معه » وتحسست أضلاعها حيث تشعر بشىء من الألم .

***

ثم نشط النسيم بشكل ملحوظ فأخذ يلوى غصون الشجر وينثر أوراقها على الأرض ، وبدا الليل أكثر سكونا عندما سرت فيه برودة كأنها سبقت فصل الشتاء فأقفلت « عنايات » نافذتها وتحركت إلى الداخل تفكر فى طريقة تقطع بها السهرة .

لكن التفكير لم يطل بها ، فقد سمعت جرس الباب يدق ، فشعرت ببهجة طارئة إذ توقعت أن إحدى صديقاتها جاءت إلى الضاحية فى زيارة ما ، فعرجت عليها كما هى العادة ، وستسارع « عنايات » إلى اتهامها بأنها لم تتكلف من أجلها تعبا خصوصيا ، وذلك لتأخذ منها وعدا بزيارة جديدة .

لكن ظنها خاب حين رأت على بابها رجلا عرفته من أول وهلة ، ولما سأل عن « سمير » دارت برأسها أفكار كثيرة ، كل فكرة منها قادرة وحدها على أن تختم على فمها فلا تتكلم . لكنها لم تجب عن سؤاله بل سارعت بمهارة وضبط نفس ففتحت له الصالون واستقبلته .

إنه الباشمهندس « حسن بك » رئيس سمير فى المصلحة .. رجل يخطو إلى

الخمسين لكنه قوى سليم متصاب شره النظرات . التقت به للمرة الأولى منذ سنة فى عقد قران ابنته ، وقد أولاها من العناية ما جعلها تضيق به ، وتفر من عينيه اللتين لم يخب فيهما بريق الرغبة على الرغم من النفاختين اللتين نجمتا تحتهما كأنهما لوزتان .

وتركته فى الصالون يتلفت حوله حتى ارتدت « الروب » وأخذت شيئا من الزينة ، وكان قلبها يدق فى عنف ، وشعرت بريقها يجف وهى تقدم له قدحا من القهوة .

كانت تريد أن تعرف اللغز ما دامت المشكلة هى التى طرقت عليها الباب بنفسها ، ولما أحس الزائر أن رائحة رب البيت غائبة عن البيت تكلم ليعلل حضوره من غير ميعاد فلم يكن عنده إلا السبب المشهور الذى يقوله سكان المدينة إذا ما زاروا سكان الضاحية البعيدة بلا ميعاد سابق ، وهو نفس السبب الذى دار برأسها وهى ذاهبة لتفتح الباب ظانة أن الطارق إحدى صديقاتها .

قال حسن بك فى زهو خلطه بشئ من التواضع :

ــ أنا آسف إذ مررت بلا ميعاد .. فقد كنت هنا ..

و لم تتركه السيدة يكمل كلامه ، فابتسمت تشكره حتى على هذا التنازل وأفهمته أنهم يقنعون منه بهذا القليل . وكان عليها أن تفهم دون أن تشعر الضيف ، هل هو يعلم بسفر زوجها أو لا يعلم ؟ .. ثم .. كيف يتأتى ألا يعلم بسفره وهو رئيسه وبإمضائه توقع استمارات القطارات ؟ وهناك احتمال آخر لكنه يبعد بعد المريخ ، وهو أن يكون « سمير » كاذبا ، وأنه سيقضى ليلته هذه فى مكان رأى حتما ألا تعلم زوجته به .. وماذا عسى أن يكون الموضع الذى يخفيه الرجال عن زوجاتهم ؟ إنه موضع واحـد ..

غير كريم على كل حال .

قالت السيدة « عنايات » تخاطب الضيف :

ـــ أرجو ألا تفرغ من شرب القهوة حتي ...

وسكتت عمدا ليكمل هو بما عنده . فأسرع يقول :

ـــ حتى يكون سمير قد عاد من الخارج ...

وشرب آخر جرعة من الفنجال ، ووضعه على المنضدة فى الوقت الذى أحست فيه « عنايات » أن خنجرا أغمد فى صدرها . و لم ترد على الضيف ، وبحثت عن ريقها فلم تجده . ووضع « حسن بك » رجلا على رجل يحملق فى نقوش السقف وهو يقول :

ـــ آه .. أين زمان هذه المبانى يا عنايات هانم ؟ .. لقد انقضى عصر الرخاء وبقيت مبانيه .. أين ذهب الولد سمير ؟ (وابتسم مداعبا) .. إنه زائغ العينين فلا تغترى بكلامه .. هل زعم لك أنه مدعو فى فرح مثلا ؟ .. يجب أن تحققى معه بعد ما يعود ..

وضحك .

ونظر إليها فإذا رعشة تمشى فى شفتيها ، وإذا شحوب يلون وجهها ، فتذكر كلامه ذا المعانى والاحتمالات الذى كان يلقيه على سمعها كلما لقيها ومنذ عرفها فى عقد قران ابنته . فحملق فى وجهها وهز رأسه ثم سألها :

ـــ لماذا لا تتكلمين .. هل تحسين بصداع ؟ .. أنا شخصيا أحس بصداع فهل عندك قرص من الأسبرين ؟

وقامت تتأود وأتبعها بصره ولما تركت الحجرة لتبحث عن قرص مسكن كان الغيظ قد بلغ منتهاه ، وأحست بحاجة ماسة إلى الدموع لكنها تذكرت

أن رجلا غريبا فى حجرة الصالون ، فكظمت غيظها ، ثم سألت نفسها سؤالا عابرا وتركت جوابه معلقا : « إن سمير الآن مع امرأة أخرى ، ليس هناك شك فى ذلك ، وإلا ... ماذا عسى أن يكون قد كتمه عنى . إن وداعه المنافق كان حارا لأنه يغطى على جرمه مقدما . آه .. لماذا لا أبيح لنفسى ما قد أباحه لنفسه ؟ .. » .

ثم دخلت إلى الصالون ومعها قرص المسكن ، فوجدت الرجل ما زال محملقا فى السقف ، وبعد أن ابتلع القرص عاد يقول :

ــ إن الذى رسم هذا السقف فنان .. ألم تلاحظى هذه العرائس العارية التى ترقص ومعها المزاهر ؟

فأجابت وهى تعض على شفتيها :

ــ لقد لاحظت كل شىء .

فرد يسألها بلهجة ذات معنى :

ــ كل شىء ؟ .. كل شىء ؟ صحيح كل شىء ؟ .

فأومأت برأسها وقد لذ لها بطبيعة حواء أن تستقصى كل ما عنده :

ــ نعم .. نعم .

فقال وهو يتنهد :

ــ هل تعرفين حقيقة غريبة .. هى .. أننى وأنا فى شبابى تعلقت بفتاة عظيمة تشبهك ، وقد تزوجت رجلا غيرى ؟

وتنهد ، ثم ضيق عينيه ، وهو ينظر إليها ، فانسربت من بين أهدابه نظرات لم ترض عنها ، لكنها أجابت على البداهة :

ــ هذه حقيقة غريبة .. لكن يا عمى (ورفعت صوتها) لا أستغرب

أى شىء ففيها العجائب .

وعندئذ فتر الموقف وأحس الرجل أنه أهين . رفع معصمه الأيسر ينظر فى الساعة بحركة لا دخل للإرادة فيها ثم قال لفوره :

ـــ يظهر أن « سمير » سيتأخر .. ألا تعرفين أين هو الآن ؟

ـــ قال لى إنه ذاهب ليعزى أحد أصدقائه فى أبيه .

فأكمل مداعبا وهو ينهض للخروج :

ـــ إذن فلا تقلقى عليه فربما يذهب إلى المسرح بعد انقضاء العزاء .

* * *

ولما أقفلت وراءه الباب ، وأطبقت عليها الوحدة ، أخذت تجول فى أرجاء المسكن كأنها تفتش فيه عن « سمير » ، ثم عادت إلى النافذة حيث وقفت تبكى فى صمت ، وكان نسيم الخريف يلوى شعور الشجر والمصباح المعهود يظهر من خلال الغصون ثم يختفى .

وعاودها السؤال الخطير : لماذا لا أخون رجلا خاننى فى اللحظة التى سنحت لى فيها الفرصة ؟

وحملت رأسها بين كفيها تنتظر الجواب ، ولما لم يأتها الرد أكدت لنفسها أنها ستجبر زوجها على الإجابة عن سؤال عجزت عن الإجابة عليه .. عندما يعود غدا فتستقبله وقد لبست ثياب التمثيل متجاهلة كل شىء ، ثم تفاجئه بالأمر .. بأمر الباشمهندس « حسن بك » الذى كان فى بيته الليلة .

وعندما ينكشف القناع ويعترف « سمير » بكبوته ، ستبكى هى بدلا منه .. إنها لا تستطيع أن تفعل إلا ما يوحى به طبعها .. إنها لا تستطيع أن تغشه حتى ولو كان غشاشا ، ستطهره بدمعها وتجبره على أن يتوب ...

وانتصف الليل وهى لا تزال فى مكانها من النافذة ، فلما أحست برودة الجو ، دخلت إلى فراشها ، وظلت طول ليلتها تحلم . مرة تعاتبه ومرة تخاصمه ، ومرة تحلم أنها تخنق امرأة مجهولة بشعرها الطويل . حتى إذا ما أصبح الصباح نهضت وكأنها مريضة . وحدثتها نفسها أن تطلبه بالتليفون فى عمله ، فهو ولا شك هناك ، وربما أخبره « حسن بك » بالأمر . لكنها آثرت أن تلقاه وجها لوجه .

وفى منتصف الساعة الثالثة — وهو ميعاد عودته — دق الجرس فذهبت تفتح الباب وقد لبست قناع التمثيل .. إنها تريد أن تعبث به كما عبث بها وستعذبه ثم تأكله كما تفعل الهرة بالفأر .

وانفرج الباب عن وجه أحد عساكر البوليس يحمل إليها خبرا .. هو أن المدعو « سمير » قد وجد قتيلا فى حادث تصادم على الطريق الصحراوى فى سيارته مع زوجته . فسألته وهى تدق صدرها :

— مع زوجته ؟

وبكت « عنايات » كثيرا . بكت على أشياء لا تحصى : على أنها عاشت مخدوعة ، وأنها فقدت رجلا كان أشبه بالسوار الماسى الذى لم يعرف الناس أنه زائف إلا يوم أن ضاع ، أما أعز شىء بكت عليه فهو أن القضاء لم يتح لها فرصة أخيرة لتثبت له أنها لم تخدعه حتى بعد أن أيقنت أنه خدعها .

وعندما فطنت « عنايات » إلى هذه القضية الأخيرة تحيرت .. فهل ظلت تحبه بعد كل الذى حدث ؟ .. ربما .

عَاطِلٌ بالوَراثة

كان ذلك منذ عشرين عاما ..

أيام كان أبى موظفا فى أحد المراكز ، ووالدا لخمسة أبناء كنت أنا أكبرهم ، وكنت شديد الإعجاب به ، شديد الحب له ، منذ تفتحت عيناى على الدنيا .

وكنت أعتقد وأنا صغير أنه ليس على وجه الأرض رجل أعظم من أبى ، ولا أغنى من أبى ، ولا أرق قلبا من أبى .. حتى إذا ما بلغت الثامنة من عمرى وألحقت بالمدرسة الابتدائية بالمركز ، أدركت أن هناك رجالا كثيرين أعظم من أبى ، وأغنى من أبى ، وبقى الشطر الأخير من القضية فى ذهنى سليما لم يمس.ولم يتغير ، فإن رقة قلب أبى وحنانه ظلت موضع إعجابى على مر السنين .

كانت أعماله الوظيفية فى المركز لا تقتضى عودته بعد الظهر ، لأنه كان يشغل إحدى الوظائف الكتابية ، ولذلك فإنه كان يلزم بيته منذ هبوط المساء ، خصوصا لأن البلد الذى كنا نعيش فيه كان يهجع فى وقت باكر ، خاليا من الملاهى والأندية وما إلى ذلك مما يشجع على الخروج .

وكان أبى رجلا غريب الأطوار ، فما كنت أستطيع أن أتصوره وهو فى البيت جالسا هكذا .. كما يجلس الناس . كان لا بد أن يعمل شيئا . وكان يقول عن نفسه ضاحكا مازحا : إن هذه لا تعرف كيف تستقر ساكنة فى مكان إلا وأنا نائم ، وما دام لا بد لها من الحركة فلماذا لا أعمل شيئا ..

يجب أن أعمل شيئا يا أولاد .. ثم يختم كلامه مؤمنا على ما يقول : وكل حركة وفيها بركة .

كنت أعود من المدرسة فأراه منهمكا فى عمل من الأعمال اليدوية التى تستأثر بالانتباه وتثير اللذة وأرى إخوتى الصغار متجمعين حوله يتطلعون فى فضول ويسألون فى إلحاح وثرثرة ، وهو يجيب بذهن شارد ويداه لا تكفان عن العمل .

فالكراسى الخيزران الموجودة فى بيتنا هو الذى يملأ قواعدها بالقش كلما تقطعت ، ويعيد دهنها بالطلاء البنى . وصنابير المياه تصلح بيديه ، والمكتب الجميل ذو الأدراج الخمسة الذى كنت أجلس عليه أنا وأخى الذى يصغرنى من صنع يد أبى ، وكذلك السلم الذى نصعد به إلى « المسروقة » الواقعة فوق المطبخ ، وإذا تعطل « المنبه » فكه قطعة قطعة وأعاد وضعه من جديد فإذا به يدق معلنا بدء الحياة ، وكذلك ماكينة الخياطة الصغيرة التى تخيط عليها أمى ملابسنا كان أبى يعرف سرها كلما تعطلت .

كان لا يكف عن محاولة الفحص والحل والتركيب فى فضول كان يثير مخاوف أمى فى بعض الأحيان أن يصيب الأشياء الغالية تلف على يديه ، لكنه ما كان يبالى . ثم أكسبه نجاحه فى معظم ما عمل ثقة لدينا كلنا ، فكانت أمى تسلمه ماكينة الخياطة كلما أصابها خلل .

وعند هبوط المساء كل ليلة كان أبى يعطى كل واحد منا ما عسى أن يكون فى حاجة إليه. فقد أكون محتاجا إلى أن يشرح لى إحدى القواعد فى الحساب ، وأخى الذى يصغرنى محتاجا إلى تسميع جدول الضرب ، وربما كان الثالث محتاجا إلى سماع حكاية قبل أن ينام . وكنت أحس أن أبى مثل النهر الكبير ،

ينهل منه كل من أقام على شطه فيرويه بعذوبة وسماحة لا تنقص من مائه شيئا .

ولذلك كان أبى موضع إعجاب زملائه وتندرهم فى وقت واحد ، فقد كانوا إذا زاروه فى بيته لا يكفون عن التساؤل كلما ألقوا نظرة على شىء من الأشياء فى البيت قائلين :

« طيب وده .. عامله ولا شاريه ؟ » .

واشتد ضحكهم عندما دخل عليهم أصغر إخوتى متسللا من فتحة باب غرفة الجلوس وهو يناغى « بابا » فإذا أحد زملائه يسأل فى دعابة سؤاله التقليدى . « طيب وده .. عامله ولا شاريه ؟ » .

***

لكننا جميعا ورثنا عن أبى هذه العادة فأصبحت على أيدينا جميعا شارات العمل ، وفى قلوبنا كلنا ميل إليه . فأختى تتسلى لتنتج صداريا من الصوف ، وأمى تتسلى لتخيط جديدا أو لصنع ملابس الصغار من ملابس الكبار ، وأخى الصغير يصنع من القش مراوح وسلاسل ، حتى إذا ما حان وقت النوم رفرف على البيت سكون تحس الأذن أنه عميق جدا لأنه وافد بعد ضوضاء ، مثل الذى يلقى بأجنحته على المدارس عقب انصراف التلاميذ ، أو المصانع عقب انتهاء نوبات العمل .

نعم ...

و لم أكن أحس بأن هناك أغنى من أبى إلا بعد أن دخلت المدرسة الابتدائية بالمركز ، فأتيح لى أن أرى ما بدد هذا الوهم من قلبى . لكننى على كل حال كنت من الموفقين فى الدراسة ، وحتى بعد أن دخلت المدرسة الثانوية ثم كلية الهندسة لم أحد عن الخطة التى أخترتها لنفسى وهى ... أن أدفن وجهى كلما

رأيت حولى من الغنى الفاحش ما يذكرنى بفقر أبى ... أن أدفن وجهى ليس بين كفى ، ولا الرمل كما تفعل النعامة ، ولكن بين دفتى كتاب أقرأ فيه حتى تخرجت فى كلية الهندسة وعينت مهندسا بالسكة الحديد ...

واغتال الموت أبى الحنون المجتهد عقب تخرجى مباشرة فبكيت ، ثم كففت لأننى أيقنت — وبطريقة لا أعرف سرها — أن عمر أبى كان أقصر مما بلغه ، وأن الله مد فيه بفضل منه حتى تصل سفينتى إلى الشاطىء من أجل أمى وإخوتى .

وذات يوم وأنا فى مكتبى أبلغت أن شخصا لا يريد أن يذكر اسمه يطلب مقابلتى ، وكنت ساعتئذ مشغولا بأعمال شتى وفى حالة نفسية غير سعيدة لبعض المشاكل التى تتعلق بمستقبل أسرتى ، فرفضت بطريقة خالية من التفكير مقابلة شخص لا يريد أن يذكر اسمه .

وبعد مضى دقيقتين على ذلك استدعيت الساعى وطلبت إليه أن يدخل ذلك الشاب ، فما كان منه إلا أنه خرج يعدو وراءه حتى أدركه فى أسفل السلم وصعد به من جديد .

ودخل على .

ونهضت فصافحته وحملقت فيه فقرأت فى عينيه طمأنينة من تربطه بى علاقة ، لكننى ما كنت أعرفه ، وكل ما استطعت أن أعيه هو أن وجهه مألوف لدى .. خيل إلى أن هذا الجبين الضيق وهذه الشفة المسترخية قليلا وهذه الملامح التى تحمل السذاجة والإهمال والإستسلام غير غريبة عنى . وكان طويلا ضخما على ملابسه بقية من الأناقة .

ولما أدرك أننى لا أعرفه سأل بابتسام :

ـــ هل نسيتنى ؟

فأجبت معتذرا :

ـــ « وما سمى الإنسان إلا لنسيه » .. أيام .

فقال بعد أن زم شفتيه وعاد فترك السفلى لتسترخى :

ـــ أنا سامى ...

فنظرت فورا نحو أذنه اليسرى فإذا بأذنه شديدة التفرطح كأنها ضغطت بنشابة ، فنهضت ثانيا من على الكرسى حيث خرجت إليه واحتضنته وعانقته ! فقد عرفت فيه جارى فى المدرسة الابتدائية بالمركز الذى حدثتك عن حياة أبى فيه وكان ابن أحد ملاك الأرض هناك ، سمينا مدللا يتبعه الخدم أينما سار ، يزحم الكرسى المشترك بينى وبينه فى الفصل ويظهر فخذه السمين من بنطلونه القصير ، ويغش منى مسائل الحساب بالرشوة أو بالإرهاب .

ومن حياة هذا الجار وحكاياته يوم جلسنا جنبا لجنب على قمطر المدرسة عرفت أن هناك ناسا أغنى من أبى بكثير ... عرفت معرفة اليقين .

وهتفت كمن أفاق من حلم :

ـــ أهلا سامى ... أين الأيام ؟؟ منذ عشرين عاما لم أرك .

وكان يبدو عليه أنه يحمل قصة جريحة ، فقد كانت آثار العز غير بادية عليه ، فقال و لم يرفع إلى طرفه :

ـــ نعم .. لكننى سمعت عنك من أحد زملائنا ولعلك تذكره ، إنه محمود عبده .. وهو الذى دلنى على مكانك .

ـــ أهلا وسهلا .

ـــ أننى أريد وظيفة ما .



وكان ابن أحد ملاك الأراضى ..
سمينا مدللا يتبعه الخدم أينما سار

(الضفيرة السوداء)

فهبطت على الكلمة كأنها صاعقة ، فلما أفقت سألته :

ـــ لقد افترقنا منذ الشهادة الابتدائية ، ونقل أبى من المركز عقب ذلك . فما هى أخبارك ؟

فقال وهو مطرق :

ـــ أخذت الشهادة الابتدائية ، وأنت تعلم أننى كنت وحيد أبى ، فأعرضت عن التعليم كأننى لم أجد داعيا له مع وجود المال .. ثم .. أنت تفهم بقية القصة .

ـــ ألا يمكن أن تسرد لى بعضها ؟

ـــ ممكن .. كنت أعتقد أن مطالب ألف رجل لا بد أن تفى بها ثروتى ، لكننى تبينت أنها لا تكفى شخصا واحدا ـــ وهو ما حدث لى ـــ إذ كان هذا الشخص الواحد محتاجا إلى ..

وسكت ، وبقيت منتظرا على أمل أن يكمل لكنه لم يفعل ، فطلبت أن يفصح فقال :

ـــ محتاج إلى قتل الوقت .. آه .. قتل الوقت . لم يكن لى عمل يا صديقى وكان هناك ثروة تكفى ألف رجل ، لكنها عجزت عن أن تكفينى لأننى أنفقها فى تضييع الوقت .. قتل الزمن . وأنت تعرف ما تعنى هذه الكلمة .

وعندئذ تواردت إلى خيالى صور شتى .. لموائد خضراء وأسفار بقصد المغامرات ، حتى مطلع الفجر ، ونوم حتى اصفرار الشمس ، وشهوات تحل العزيمة وتمزق قوام الشخصية .

فهززت رأسى وأنا أقول له :

ـــ تحت أمرك .. هل صممت على أن تعمل ؟

ـــ نعم .

فتجاهلت ما فى نفسى وقلت :

ـــ صنعة فى اليد أمان من الفقر ، ومن الممكن أن تتعلم الآن فى ورش المصلحة ما ..

فنظر إلى يديه وقلبهما ، ثم نظر إلى وفى وجهه عتاب فسألته :

ـــ إذن صف لى العمل الذى تتصوره صالحا لك .

فقال :

ـــ ألست زميلك ؟ .. أجلس على مكتب .

ـــ ممكن .. لكن .. سيكون أجرك الشهرى غير كاف لطلبات (البوفيه) يا صديقى العزيز .. فكر .

فاستأذن مستمهلا إلى الغد .. على أن يعود .

***

ومر يوم ولم يحضر ...

ومر شهر ولم يحضر ...

ومرت سنة ولم يحضر ...

وكنت واثقا أنه لن يحضر ، وواثقا أيضا أن البقية الباقية من الوقت ستقتله .. كأنها تأخذ ثأرها من الوقت الذى قتله هو بثروته التى كانت تكفى ألف شخص .

وعند ذلك ترحمت على أبى الذى كان لا يكف عن العمل إلا وهو نائم ... رحمه الله ...

الكنز

هتفت به زوجته تناديه ، والألم يلون نبراتها والخوف يحيل نداءها إلى ابتهال ، هتفت به تقول :

ــ قم يا محمود .. أظن أن الأوان قد آن .

ثم عاودت الأنين فى اللحظة التى صاح فيها على السطح ديك فتى يؤذن بقرب النهار ، وهى نفس اللحظة التى لبس فيها الزوج ملابسه بعد أن نفض عنه النوم ، واستودعها الله وتركها وخرج من الدار .

كان كل شىء نائما ، غير أن القمر كان سهران بانتظار طلوع الشمس ، ومن الحقول يفوح عطر ممزوج بالندى ، والجو دافئ ، والطريق الفرعى الذى سلكه الزوج حتى يصل إلى الطريق العام كان ملتويا ضيقا ، لكنه كان قلقا يريد أن ينفذ مهمته بسرعة . وعثر على حفرة صغيرة ملأها الماء الذى ساح من الترعة فى منتصف الليل ، فلم يبال بشىء لأن أنين زوجته كان لا يزال مالئا أذنه ، وظل يهمهم بالدعاء . وأخيرا لاحت له الأشجار العالية الواقعة على الطريق العام ؛ لم يكن فيها غصن واحد يهتز كأنما النوم قد أثقل أوراقها ، وفرح لأنه صار على مقربة من غايته ، لكنه وقف فجأة على الطريق الزراعى لأن فكرة مزعجة هبطت عليه ، وسأل نفسه قائلا :

« لكى أصل إلى دار القابلة يجب أن يكون القارب على هذا الشاطئ ، وماذا يكون العمل لو شاءت المصادفة أن يكون القارب على الشاطئ الثانى ؟ إن زوجتى تعانى آلام الوضع وهى الآن وحيدة ، لكن ...» .

ثم كف عن التفكير ووقف على الطريق كأنه يتفقد كل ما حوله ، وكانت خيوط الفجر الأولى آخذة فى الظهور على الأفق ، لكن نور القمر كان يفرش الطريق والمزارع الخالية من القمح وينسكب على رءوس الأشجار ، وبينما هو متجه نحو الشمال إلى حيث يقف القارب الذى ينقل من شط إلى شط ، مرت على الطريق سيارة نقل فى اتجاهها إلى الشمال كذلك ، فاتخذ جانبا ليفسح لها ، وما أن تجاوزته بعشرين مترا حتى سقط فجأة من حمولتها أحد الأكياس التى تحملها ، وهم أن يصيح بالسائق ليقف ، ولكن شيئا شريرا فى داخله منعه عن هذا العمل . وواصلت السيارة سفرها نحو الشمال ، ونسى الرجل لفترة ما تلك المهمة التى خرج من أجلها . نسى ذلك تماما ولم يعد مشغولا إلا بالغنيمة التى وقعت على الأرض ، وجرى نحوها سريعا فألفى الكيس مطروحا على الطريق ورائحة دقيق القمح تفوح من مسامه . فإذا به مملوء لم يصبه أذى من السقطة . ووقف حائرا طامعا يفكر ... إن النهار على وشك أن يسفر وربما رآه أحد الناس . وفضلا على ذلك فإنه لا يستطيع أن يحمله حتى القرية ؛ والأهم من هذا كله هو ذهابه إلى القابلة لأن زوجته بانتظارها ، ولعلها الآن تعانى آلاما شديدة ، لكن كيس الدقيق فتح أمام خياله أبوابا سحرية ، خصوصا لشدة حاجته إليه فى هذه الفترة ، وحمله على كتفه وسار به نحو ثلاثمائة متر ...

كان الماء فى الترعة منخفضا ، وكان هناك مصطبة تعتبر امتداداللترعة منخفضة عن الطريق نمت فيها نباتات برية مثل البرنوف والصفصاف والحشائش . ووقف عندها بصره فنزل ودس الكيس فى وسطها ، واطمأن تماما إلى هذا المخبأ ، ثم صعد إلى الطريق واتجه نحو القارب ليعبر به إلى دار

القابلة .

لكنه فوجئ بأن وجد القارب راسيا على الشاطئ الثانى ، والسلسلة الحديدية التى تشده بين الشطين غارقة فى الماء ، والنهار بدأ يرسل خيوطه البيضاء على الأشياء من وحله .

وبينما هو يفكر فى خلع ملابسه وعبور الترعة سباحة ، رأى رجلا وامرأة يهبطان نحو القارب .. كانا يريدان العبور إلى الشاطئ الذى هو فيه ، تنهد .. وحمد الله .. نعم .. حمد الله وخجل منه لأنه قد فرغ من توه من ارتكاب جريمة .. لكنه ما لبث أن تناسى الموضوع وألقى بسمعه إلى الخشخشة الرتيبة التى تنبعث من السلسلة التى يعبر القارب بواسطتها . ووصل الرجل والمرأة إلى الشاطئ ، وكانت دهشته كبيرة حين رآهما ، قال :

ـــ لقد كنت فى طريقى إليك يا أم السعد ... إن زوجتى تلد .. إلى أين أنت ذاهبة ؟

ـــ ألا تعرف ابن من هذا ؟ إنه من العزبة القريبة .. حالا ... سأمر عليكم .

✻ ✻ ✻

وعند الظهر كان كل شىء فى الدار صامتا ... فقد بشر الأب بمولودة بنتا ... وكانت الثالثة فى الترتيب ... والريفيون يحبون الذكور ... كان الأب يقول فى نفسه : إننى لن أجد من يدافع عنى عندما أشيخ لأننى لم أنجب ولدا .

لكنه كان ينتظر المساء لأن كيس الدقيق سينثر فى داره هناء ورخاء . على أنه لم يبلغ زوجته نبأ ما فعل وقت الفجر ، ربما لأنه أراد أن يدخر لها

مفاجأة ، وربما لأنه خاف تأنيبها وأراد أن يضعها أمام الأمر الواقـع .

وعند العصر ذهب إلى الترعة ، وتحين فرصة ألا يراه أحد وهبط إلى حيث وضع الكيس .. واطمأن عليه . إنه لا يزال كما هو ... وتركه وعاد .

كان ينتظر المساء بقلق ، بل لا بد من وقت متأخر نوعا من الليل لأنه سيحمله على حماره .. إنه ثقيل بالطبع .

ودخل المساء ، وكان أهل الدار مشغولين فى إعداد طعام الوالدة ، وتوافد عليهم الأقارب وظلوا ساهرين . وكان الرجل مشغول البال بكنزه ، فقد صور له خياله ألف مرة أن عابر سبيل نزل إلى هذا المكان لصيد السمك أو قضاء الحاجة فعثر على الكنز ، وزاد من قلقه أن الصيادين كثيرا ما يخرجون من القرى المجاورة لينصبوا « الصنار » أو يلقوا الشباك فى هذه الترعة .

وأخيرا ... تقدم الليل وانصرف الزائرون ، وحانت ساعة الخروج فتردد من جديد هل يخبر زوجته بالأمر ؟

وظلل الصمت على المكان ، وكانت الزوجة قد سبحت فى نوم عميق من أثر الجهد وسوء البشرى .. لأنها ولدت بنتا فآثر أن ينسحب فى صمت ، وذهب فسحب الحمار من الحظيرة وركبه إلى هناك .

و لم يلقه فى الطريق ما ينغص باله ، وأخذت دقات قلبه تتزايد كلما قرب من مكان الكنز ، و لم يكن هناك قمر .. لأن القمر كان لا ينهض إلا فى أواخر الليل .

ولما قرب من المكان ربط حماره فى مدخل أحد الحقول ، ثم سار حثيثا إلى الترعة ، وكان يبتهل إلى الله بطلب واحد هو ألا ينهق حماره فى هذا السكون لأن ذلك قد يترتب عليه ما لم يدخل فى حسابه قط .

وأخذ ينحدر من الطريق إلى المصطبة التي نمت عليها الشجيرات البرية ، وما إن وضع قدمه على أول شبر فيها حتى فوجئ بأنها مملوءة بالماء ، فتحسر ؛ منسوب الماء فى الترعة كان قد ارتفع بحكم نظام الرى . عندئذ قدر أن الكنز قد ابتل إن لم يكن غرق . .

ونسى كل ما وراءه ، و لم يكن له من هم إلا أن يرى ما حدث ، فخلع نعله وشمر ثيابه وخاض الماء الذى غطاه حتى ما فوق الركبتين . ثم سار .. وسار .. ووصل إلى شجرة الصفصاف ، فألفى الكيس غارقا تماما حتى صار قطعة من العجين .

ومرت على الطريق الزراعى فى هذه اللحظة سيارة نقل ذكرته بما مضى ، وكان سائقها رافعا صوته بالغناء ، ولما ظلل الصمت من جديد أخذ يفكر .. لماذا لا ينقله ؟! إنه دقيق تحول إلى عجين .. وهذا طبيعى .. ليكن كيسا من العجين يخبز غدا مع شروق الشمس .

واستجمع قواه وجره حتى الشاطئ . ثم وقف وغسل قدميه من الطين ولبس حذاءه ، وذهب ليحضر حماره من مدخل الحقل .

وهناك .. وقف حائرا . لأن صدمة غير منتظرة أفقدته رشده ، فوقف يحاول جمع شتات ذهنه كأنه أفاق من إغماء ، إنه لم يجد حماره .. لقد كان مربوطا فأين ذهب ؟ . هنا . فى هذا المكان بدليل هذا الروث الذى تركه كتذكار مضحك .

وأخذ يدور حول المكان فى صمت ولكن بلا جدوى ، طبعا كان هناك من يراه .. عيون غير عيون الله .. رجل آخر طبيعة نفسه مثل طبيعة نفسه لقط حماره من بين الحقول ، كما لقط هو كيس الدقيق من على الطريق .



كان ينتظر المساء بقلق ، بل لا بد
من وقت متأخر من الليــل ...

وكان لا بد له أن يعود ..

وفتح باب داره برفق ، كما خرج برفق ، ولما دخل على زوجته الفاها لا تزال نائمة ، والطفلة الجديدة فى اللفائف ، وعلى وجهها تعبير لا يعنى شيئا .

وايقظ زوجته من النوم :

ــ قومى .. عندى ما أقوله لك .

ولما انتهى من قصته دقت على صدرها بكفيها ، وأطرق هو نحو الأرض فى خزى أشد من خزى التى بشرت بالأنثى الثالثة .

وعندما أشرقت الشمس .. شمس اليوم التالى .. كان جماعة من الفلاحين ملتفين حول كيس العجين الملقى على الطريق وهم يضحكون ويتساءلون عن أصل الحكاية . وأخيرا قرروا أن يلقوا به فى الماء .. خشية أن يأكله إنسان أو حيوان فيموت .. لأنه ولا شك مسموم .

الأشياء النفيسة

لو لم تبُد له فى ذلك الصباح لما صارت نهبا لكل هذه المتاعب .. لقد كان دافعها فى الواقع أن تتخلص من إحراج ، ولكنها وقعت فى إحراج دون أن تدرى .

فقبل تمام الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم وقفت الآنسة أمام إحدى المكتبات لتشترى كتابا مدرسيا ، وكان الزحام شديدا نوعا ما والبائع الوحيد فى الداخل يبدو مرتبكا من سرعة الطلبات . فكل الواقفين والواقفات يريد الانصراف قبل أن يدق جرس الدخول .

وعلى الرغم من أن الطلبة فى هذا الموقف اتخذوا ناحية اليمين ، واتخذت الطالبات ناحية اليسار ، فإن الآنسة قد أحست به على مقربة منها فى اللحظة التى اتكأت فيها على « فاترينة » البيع ، وبنظرة من زاوية عينيها عرفت وجهه ..

إنه هو نفسه .. هو نفسه ، هو الذى يتبعها فى الطريق صامتا كأنه الظل ، وإذا تحدث فبشفتين لا يخرج من بينهما كلام .

وكان وجهه اليوم أكثر شحوبا .. ولم تستطع أن ترى عينيه لأنه سترهما بنظارة . ولم يطلب شيئا من البائع كأنما تريث حتى تنتهى من طلبها .. لكنها أحست بكفه تتلمس الطريق إلى يدها تحاول أن تدس بين أصابعها ورقة مطوية .. وفى طرفة عين مرت برأسها آلاف من الأفكار يدعوها أكثرها بأن ترفض ما يقدم إليها .. حتما .

وفى الوقت الذى صممت فيه على أن تتراجع تاركة مكانها وجارها ورسالته . خارت عزيمتها أمام ما أحسته من إحراج ومن خوف العيون التى خلفها أن تقع عين منها على هذا المنظر . ولعل شيئا من حب الاستطلاع ساعد أيضا على ذلك ، فأخذت الورقة المطوية من اليد الممدودة ووضعتها فى أقرب جيب ، ثم اندفعت راجعة تتلمس طريقها إلى المدرسة .

وتنهدت بعد أن ابتعدت عن الناس ، ومشت وحدها فى الطريق وأخذت من هواء الصبح نفسا طويلا ، وعلى الرغم من بغضها لهذه التجربة الأولى وخوفها منها فإنها أحست بشوق إليها . وتحسست الورقة وتذكرت حوادث تدور حول أمثال هذه المواقف .. وحكايات تقصها البنات .. وكلمات حفظها بعضهن يرددنها أحيانا فى خوف وحذر ، وقالت وهى تنقل خطواتها مسرعة وتتلفت حولها كأن أحدا يسرق الخطى خلفها :

— إن فى جيبى هذا الصباح كثيرا من الكلمات . ليتنى أستطيع أن أقرأ أول سطر لأرى كيف يتكلم .

وما كادت تمد أصبعيها لتمسك بطرف الرسالة وتخرجها من جيبها حتى أحست بيد تقبض على كتفها فالتفتت مذعورة ، وإذا بالضحكة المرحة والوجه البشوش يلقى عليها تحية الصباح فتنفست فى عمق ، وتركت الخطاب مكانه ، وألقت نظرة عاتبة على صديقتها وجارتها فى الفصل ، وسارتا تتكلمان .

وأخذت جارتها تقص عليها وهما فى الطريق آخر ما فعله أخوها فى قضية زواجه . تلك التى شغلت الأسرة وأوقفتها على رجل واحدة منذ ثلاثة أشهر . فهو لا يريد أن يتزوج من خطبوها له ، لا يريد أن يتزوج إلا عن حب ،

وأبواه يريدانه على أن يتزوج كما تزوج أبوه . والمشكل فى الأمر أن حادثة الحب لم تقع بعد ، فهو لم يعثر على التى تبادله الهوى الذى يفضى بهما إلى الحياة الزوجية .

وكانت تستمع إلى جارتها وخواطرها تنتقل بين سطور الرسالة التى لم تقرأها حتى الآن . ولم ينزعها من تلك الخواطر إلا دقات الجرس وهى على مقربة من المدرسة ، فأحست كأن قدرا يحول بينها وبين قراءة هذه الرسالة ، ولو لم تكن جارتها يقظة العينين لوضعتها على حجرها وقرأت بعض ما فيها ، لكنها أودعتها حقيبة الكتب حتى تخرج فى الفسحة الأولى ، وأحست أنها لم تفهم كلمة واحدة مما قاله المدرسون ، وبدأ الزمن ثقيل الوطأة يجر نفسه جرا ، حتى إذا ما دق جرس الفسحة شعرت برغبة فى العزلة ، لتخلو إلى نفسها وتقرأ الخطاب .

كانت كلماته خجلة مثل صاحبها ، مترددة هادئة كمن يتكلم بكلام غير مفهوم . أما الخط فقد كان دقيقا كأنما كتب بسن إبرة . أما الروح الغالبة على الرسالة فلم تكن سوى ابتهال ورجاء واستعطاف التى لم يعرف اسمها بعد أن عرف روحها بين ألف نفس .. ثم رجاء أخير .. بالرحمة .. قبل أن يموت من الوجد والأرق والأسى والحب .. وهو فى انتظار الرد .

وقرأت الآنسة هذا دفعة واحدة كأنما ازدردته ازدرادا ، فألهتها السرعة على أن تتذوق طعم ما قرأت ، ولم يكن القلق الذى صاحب موقفها متيحا لها فرصة الإحساس الواضح . حتى سمعت على مقربة منها وهى تقرأ منزوية بين السور والمبنى الخلفى تضاحك بعض التلميذات وهن يستغربن وقفتها ، ورمتها إحداهن بعدة كرات من الورق قائلة :

ـــ ماذا تقرئين ؟

فطوت الآنسة ما فى يدها . ثم أخذت طريقها نحو حديقة المدرسة .

أما بقية حصص ذلك اليوم فقد ضاعت فى الهواء ، وأحست وهى تصغى لدقات جرس الانصراف آخر النهار أنها خانت وقتها وظلمت نفسها ، وأن هذا الفتور الذى يملأ قلبها لن يجعل الحياة هانئة كما يصورون ، فهى أشبه بالسكارى أو الناقهين من المرض ، لا تحس الأشيـاء إحساسا محدودا . ولا تصاحبها السكينة التى تجعل العين ترى كل شىء جميلا .

و لم يكن يشغل بالها شىء مثل ما كان يشغله ما أتاحته لهذا الشاب من فرصة التجرؤ والتقدم نحوها خطوة أخرى ، كانت تقول فى نفسها : لو أننـى أسقطت الورقة تحت قدمى ، أو لو أننى دفعت يده غير خائفة من أحد لوقف الأمر عند هذا الحد ، لكننى أخطأت .

وحاولت ألا تعود وحدها فى هذا اليوم . فسارت مع طائفة من زميلاتها ، وكانت عيناها تدوران فى كل اتجاه فى حركة زئبقية قلقة كأنها مدين مفلس يطارده دائن سليط اللسان . ومشت الأمور على خير ما كانت ترجو ، فلم يقع عليه نظرها ، لكنها بعد أن أودعت حقيبتها فى حجرة مكتبها كانت تحس أنها لا تريد أن تفارق الحجرة كأن شيئا محبوبا مزعجا مستبدا فى وقت واحد يربطها بهذه القصاصة من الورق .

وبعد أن غادر إخوتها الذين يشاركونها فى الحجرة أماكنهم إلى فراشهم أخرجت الرسالة وأعادت قراءتها .

وكان كل شىء فى البيت نائما ، والخادمة تئن فى مرقدها من أثر جرح السكين فى كفها وهى تزاول بعض أعمال البيت ، ولم يكن شىء من الأشياء

بقادر أن يدخل رأس الآنسة فى هذه اللحظات إلا كلمات الخطاب الذى يثير ضحك الكبار إذا قرأوه .

وكان الخطاب بين يديها ، وهى معتمدة برأسها على ذراعيها ومتكئة بكوعيها على المكتب .

وأفاقت من أحلامها الصغيرة على صرير الباب وهو يفتح ، وفجأة رأت والدها واقفا بقامته المديدة عند مدخل الحجرة وهو فى ثياب نومه وعلى وجهه تقطيبة ارتعدت لها فرائصها ..

وبالطريقة التى تهرب بها الطريدة إذا حاصرها الصياد .. بالغريزة وحدها ، وليس بالعقل ، تخلصت من الموقف وخبأت الرسالة بحركة سريعة وهى تراقب نتائج ما عملت فى عين والدها الذى تضمر له الحب والاحترام .

ولم تعرف نتيجة ما سمعت إلا عندما قال لها بلهجة فيها فتور التعب :

— قومى يا بنتى جهزى لأمك زجاجتين من الماء الساخن لأنها فى شدة التعب ، والخادمة مريضة ..

وتنفست الفتاة الصعداء ، وعملت ما طلب منها ، وألهاها موقف أمها لساعتين أو ثلاث ساعات عن القصاصة التى أضاعت سلام يومها .. حتى آوت إلى الفراش بعد منتصف الليل وكأنها حضرت من سفر طويل سائرة على قدميها ومتاعها فوق رأسها .

* * *

ونهضت عند الصباح تحاول أن تتذكر شيئا مهما ... أين أخفت الرسالة ليلة البارحة ؟

كان إخوتها قد سبقوها إلى المدرسة فى ذلك اليوم ، ولما دخلت إلى

المكتب وألقت نظرة على حقيبتها عرفت بطريقة لا تقبل الشك أن يدا عبثت بها ، فليس كل شيء فى المكان الذى تعودت أن تضعه فيه .

و لم تجرؤ على أن تسأل أحدا . يا لها من مصيبة ؟ . فلا شك أن والدها قد قرأ على وجهها كل ما كانت تقرؤه عيناها فى الورقة .. وها هو ذا قد فتش حقيبتها وعثر على الخطاب ... كثير من اللصوص يقبض عليهم عند السرقة الأولى ، ربما كان أمر هذه السرقة تافها ، وربما كان اللص نفسه مسوقا إلى عمله بإرادة مسلوبة ، لكن سوء طالعه يرميه بين يدى الشرطة .

وعادت تسأل نفسها : ما الذى دعانى إلى أن أخضع لذلك الحرج وأمد يدى إليه ؟ لو أن بعض الشجاعة صاحبنى صباح أمس ما حدث كل ما حدث .

وفحصت نظرات أمها وهى تودعها قبل الخروج ، فرأت الفتور واضحا فى نظرتها وتحيتها ، ولما خرجت إلى الطريق أحست بنفس الإحساس الذى عذبها فى اليوم الماضى ... إحساس المدين الذى يطارده الدائن ...

و كما تدفن النعامة رأسها فى الرمل حتى لا ترى الصائد ، ظنا منها أنه بذلك لا يراها — مشت فى الطريق لا تلتفت إلى أحد ، لا يمينا ولا شمالا ، وهمس أحد المارة لها بكلمة فلم تعلم من هو ولا ماذا قال . كانت هموم شديدة تخيم على قلبها ، وظلت طول النهار منزوية فى ناحية المدرسة ، وحيدة كأنها فقدت عزيزا .

وانقضى النهار . وجلست الأسرة إلى العشاء ، وأخذ الأب يتكلم عن بعض أصدقائه وكيف لم يكتبوا إليه خطابات منذ مدة . وجعل ينعى على مصلحة البريد عدم اهتمامها . ثم قال متطرفا :

— لعله من الأفضل أن تسلم الخطابات باليد إلى من نكتب إليهم ..
فذابت من الخجل وودت لو قدرت على أن تترك مكانها .

✻ ✻ ✻

وحاولت عبثا بعد ذلك أن تجد الخطاب ..
وفى اليوم الثالث عثرت على شىء أهم..على الشخص الذى كتبه إليها...
كان واقفا ينتظرها عند أحد المنعطفات وعلى وجهه قناع من القلق وعلى عينيه منظار يسترهما تماما . وفى هذا اليوم تقدم إليها وهو أكثر شجاعة لأنها هى منحته الشجاعة ، وسار بجوارها بضع خطوات ثم سألها هامسا :
— أين الرد ؟ .. الرد .. الرد ..
— هل تريد الرد ؟
فقال متنهدا :
— نعم ..
فقالت :
— هو أنك ...
وكانت الكلمات التى خرجت من فمها كفيلة بأن تسقطه على الأرض ، ولولا أنه تماسك ، وعند أول منعطف انحرف مبتعدا عنها ، وأخذت تبحث عن ريقها بعد ذلك ، ثم حاسبت نفسها على ما تفوهت به ، تلك الكلمات التى كانت تنزه نفسها عن أن تواجه بها أى إنسان مهما كانت إساءته فى نظرها ، لكنها بعد أن هدأت سألت نفسها :
— من المسئول عن كل هذه الأخطاء ؟
فكان الجواب :



وأخذت تبحث عن ريقها بعد ذلك ،

ثم حاسبت نفسها على ما تفوهت بـه

ـــ إنها المسئولة .

***

وظلت طوال خمسة أيام تعيش حياة من ينتظر صدور حكم ، ونظرات أبويها تحمل معانى شديدة الغموض ، وهمت أن تسأل أمها عن سر هذا التغيير ، لكنها خمنت الجواب فأمسكت عن السؤال ، فماذا عسى أن يكون جواب أمها إلا أن تقول لها :

ـــ يكاد المريب يقول خذونى .

وفى اليوم السادس ، وفى الليل ، والبيت نائم أيضا ، وهى فى الحجرة وحدها ، بعد أن انصرف إخوتها الذين يصغرونها إلى فراشهم ـــ كانت تتصفح إحدى كراساتها ، فعثرت فيها على الخطاب ، وتناوبتها إحساسات كثيرة ذات أطوال وأبعاد متشابكة تورث الدوار وضيق التنفس .

إذن فالخطاب لم يقع فى يد أبيها ، وكل الذى أحسته من أبويها فى هذه الفترة لم يكن إلا فى باطنها هى .. حسن .. والحمد لله .. لكن .. إن هذه الكراسة غابت عن حقيبتها ثم رُدَّت إليها .. سلمت إلى المدرسة لتصحيح بعض الواجبات ثم عادت .. ترى هل وقع بصرها على هذا الخطاب ؟

وبعينين زائغتين من الهلع أمسكت الخطاب بعد أن عاد من رحلته ، فإذا به يحمل آثار الأماكن التى مر بها كأنه جواز سفر . لقد وجدت هذه العبارة مكتوبة بقلم أحمر فى ذيل الخطاب « الأشياء النفيسة لا تباع على الأرصفة ، ولا على قارعة الطريق . وعندما نبيع الأشياء النفيسة أو نشتريها يجب أن نحتاط حتى لا نخدع .. كنت فى مثل سنك فاعملى بنصيحتى » .

وبعد أن قرأت هذه العبارة أشعلت النار فى الخطاب فتحول إلى رماد .

وقد خيل إليها من فرط غيظها أن تحرق الرماد مرة ثانية ، وباتت تحلم طول الليل بالنظرات التي ستظل مصوبة إليها من هذه المدرسة .

لكنها عندما لقيتها بعد يومين لم تر على وجهها إلا التعبير العادى كأنها لا تعلم من أمرها شيئا . وبقيت ملامحها طول العام الدراسى تذكرها بخطئها . كانت فى الواقع بالنسبة إليها أشبه بصوت الضمير .

وانتهى العام ، وفى بداية العام الجديد ، عند افتتاح الدراسة ، اختفى من حياة هذه الآنسة وجهان كانا يثيران فى نفسها أشياء لا تحتملها بسهولة : وجه الشاب الذى أعطاها الرسالة ، ووجه المدرسة التى مثلت صوت الضمير ، لكنها ظلت بعد ذلك تتحسس آثارهما فى أعماق نفسها زمنا بعيدا .

القُرْبَانُ

« رب قطرة دم سالت من حيوان فحررت إنسانا »

كانت ذكريات القرية التى رحل عنها تعاوده وكأنها أحداث جديدة ، ساعة كان يجتاز شوارع المدينة بلا هدف ، وعلى يمينه سور لإحدى شركات الأقطان وعلى يساره شريط السكة الحديد والوقت ليل والجو صحو والهواء رطب يهمس فى الأغصان ، والشارع شبه مقفر من الناس ، والمصابيح متباعدة المدى ، وعلى المكان هدوء يثير الذكريات والفضول والمخاوف ، وهبت عليه فى وقفته رائحة لا يدرى لماذا ذكرته برائحة القطن ، فعادت إليه تفاصيل السنوات التى قضاها فى القرية ، أيام تفتحت عيناه على العمل وهو صبى لم يزل فى الثامنة من عمره ... يسير للمرة الأولى إلى جنب أمه نحو حقول (البيه) ، والشمس تخطو إلى المشرق خطواتها الأولى ، وهو مع قافلة من الرجال والنساء والصبايا يفرك عينيه من بقية النوم ، ويتمنى لو تركوه يرقد تحت ظل شجرة،وفى حناجر البنات أغنية متهالكة يحاولن أن تكون لحنا يثير الحماسة .

وعادت الرائحة التى لعلها هبت من أحد المخازن تملأ أنف (حسن) وهو عند ناصية الشارع ، فابتسم فى سعادة كسعادة الجريح الذى برئ ، وأخذ يحملق فى عجلات قطار البضاعة ويتذكر المتاعب التى عاناها فى حقول البيه فى الأسبوع الأول قبل أن تمرن يده على خطف اللوزات ، والعثرات التى أصابته ، والشتائم التى لاحقته ، والخدوش التى ملأت أطرافه وصفحة خده ، حتى إذا مالت الشمس للغروب عاد من القافلة إلى الدار ، وأغنية فيها شىء من الحماسة تبشر بالعشاء والرقاد حتى الصبح .

وتنهد (حسن) وتذكر أنه اليوم فى العشرين من عمره ، وأنه يعيش فى مدينة كفر الزيات .. تملأ الطمأنينة حياته فى العمل ، مع أن والده كان يخاف ألا تتسع لهم حقول البيه ذات يوم لسبب من الأسباب فتقع النتيجة الأليمة .

نعم . هناك ذكريات تسعة عشر عاما مضت لهذا الشاب وقعت فيها حادثتان كانتا سبب تحول فى حياته البسيطة .

وكانت الحادثة الأولى يوم نزول البيه الصغير إلى حقول القطن ليتفقد المزرعة وليرى منجم الذهب . الذهب الأبيض تعمل فيه الصبايا والرجال . وكان على صهوة حصان ووراءه خادم وفى فمه سيجار وعلى رأسه قبعة ، وتحركت الأمانى لقدوم البيه كما تحركت المخاوف ، وحمل النسيم إلى أنوفهم رائحة مختلطة من العطر والتبغ . فشهق البعض وكتم البعض ضحكته وهو منحن عند جذور الشجر ، وكان (حسن) فى مقدمة العمال ، يده تخطف اللوز كأنها دولاب ، وعلى صفحة وجهه المستدير سمرة من الشمس وصحة من الله ، وقد شد وسطه بحزام من القطن ولبس قلنسوة فيها عرق وزينة من أشغال إبرة لفتاة تحلم بالزواج منه .

ووقف البيه الصغير أمامه وسأله عن اسمه واسم أبيه ، ثم طلب إليه بنبرة توحى بالأمان أن يمر عليه آخر النهار عقب انتهاء العمل . ولكن الحصان تحرك وصهل وتبعه الخادم ، ثم تبعت ذلك ضحكات وتنبؤات وأغنية مازحة . وأخذ الجميع يخمنون ماذا سينال هذا الشاب الوسيم .

***

تحرك قطار البضاعة من مكانه وسار فى بطء استطاع معه الشاب أن يعد العربات وأن يعرف شحنة كل عربة ، ولما مرت أمامه عربة مقفلة تذكر

الدهليز الذى فى دارهم وليلة اجتازه ليحمل تفاصيل المقابلة إلى أبيه العجوز ، فقد عرض عليه البيه الصغير أن يكون تابعا له يعنى بحصانه وكلابه وأدوات صيده ويحمل إليه الطعام إذا كان بعيدا عن البيت ، وسيكون أجره بعد ذلك أجر الذى يشتغل فى الشمس طول النهار ! .

وكان الشاب شديد الرغبة ، لكن والده أعرض عنه فى تأفف ، فقد كانت فكرة الأب أن العمل وإن كان شاقا خير من التبعية وإن كانت مريحة ، وأن قرب ولده من مثل هذا الشاب لن يمنحه إلا أحساسا بالذل مع مطلع كل شمس . وسأله الشاب : لماذا يا أبى ؟ فنظر إلى المصباح المعلق على الحائط وعاد يقول له : ذلك لأنه ابن أبيه ، وقد كان أبوه أيضا ابنا لجده . سترى أنهم لن يشعروا إلا بأخطائك ، أما عملك الطيب ... فلا . ولن تكون لك عنده قيمة الحصان. فأجابه الابن: لكنك نسيت ياأبى أننى غير قادر على الرفض... لأن الرفض معناه أنى لن أجد عملا فى القرية .

فتنهد الأب فى يأس وقال :

— نعم يا بنى ... نعم ... نعم نسيت ...

⁂

وتسلم الشاب عمله الجديد .

وحين تذكر ما عمله تبسم وهو حائر ، فلقد كان عليه أن يمشى بحصان وكلبين كل عصر مسافة قصيرة ، فى يمناه سلاسل وفى يسراه لجام ، تلاحقه همسات القرويين وتطالعه النكت من عيونهم . فاستشعر فى الأيام الأولى خجل الرجل الذى يلعب بلُعبة طفل على الطريق العام. ثم أخذ هذا الإحساس يفارقه ليحل مكانه إحساس بالذل كان يأوى به آخر اليوم إلى فراشه فلا

يذوق النوم . واشتد به القلق والحزن فى إحدى الليالى التالية ، حين كان عائدا من المزرعة إلى القرية والطريق ساكن . فخيل إليه وسط السكون أن هاتفا ينادى باسمه ، و لم يصدق أذنيه ، ولكن الصوت عاد يدعوه بنبرة كان يعرفها تهمس السين وكان بين الأشجار شبح فتاة ، فتحسس القلنسوة فوق رأسه ، إنها هى التى صنعت له بالإبرة زينة فيها . وأحس بخفقات قلبه تتوالى ،وبشىء فى ثقل الكابوس يجثم على صدره ، فسألها وهو خائف :

ــ مالك يا زينب ؟

فقالت له :

ــ إننى سأتزوج ابن خالى ... وانتهى الأمر .

فسألها فى قلق :

ــ من الذى أنهى الأمر ؟

فأجابت بصوت مخنوق :

ــ أنت ... أنت يا حسن . إن أهلى يعيروننى بالصنعة التى أخترتها لنفسك .

فسألها :

ــ وهل أنا الذى اخترتها لنفسى ؟. أنت تعلمين أننى مضطر يا زينب .

فأجابته من خلال دموعها :

ــ وأنا مضطرة . إنهم يقولون لى : « إن الرجل الذى يمشى خلف المواشى أشرف من الرجل الذى يمشى خلف الكلاب » .

ثم انفجرت باكية ، وانسربت فى الظلام وتركته .

،ووقف بعدها يتلفت و لم يكن يصل إليه شىء إلا صفير لجندب وحيد

يبحث عن صوت يناغيه ، ثم جر أقدامه حتى وصل إلى الدار ، وهناك وجد أمه جالسة عند العتبة على وجهها سحابة دكناء من طرحة (التل) التى أرسلتها إلى الأمام ، وعلى مقربة منها مصباح يرسل نوره فى قلق . مصباح بلا زجاجة ... يخفق نوره يمينا وشمالا فى هيئة لسان أرجوانى .

وشعر الشاب كأن مصائب الدنيا وقفت له بالمرصاد ، وحدثه قلبه أن أباه يعانى مرضا ربما داهمه وهو غائب فى العزبة ، ولكن أمه أخبرته أن أمرا خطيرا وقع فى دارهم .. ذلك أن البقرة التى يملكونها .. مريضة .. وأن عليه أن يجلس على مقربة منها وفى يده السكين الكبير .

وتذكر الشاب أنها بالنسبة للأطفال كأنها أم ثانية ، وبالنسبة للكبار كأنها مخزن مئونة وآلة فى الحقل .. وخيل إليه أنها أيضا زينة لدار الفلاح أجمل من أقفاص العصافير فى بعض الشرفات ، لكنه على الرغم من كل ذلك دخل إلى القاعة وسحب السكين الكبير من إحدى الكوى ، ونظر إليها مثقل الضمير كأنه صديق سيغتال صديقا .

ولما اتجه حسن إلى الحظيرة تذكر الكلمات الأخيرة التى قالتها له زينب هذا المساء : (إن الرجل الذى يمشى خلف المواشى أشرف من الرجل الذى يمشى خلف الكلاب) ، فدمعت عيناه .. لأنه شعر .. أنه لن يكون له مع الصباح ماشية .

ونظر فى عينى البقرة كأنه يبادلها الوداع وقد خبأ السكين فى مكان قريب ، وكانت آيات من القرآن تصل إلى أذنه .. يرتلها أبوه فى الحجرة القريبة تحمل معنى الدعاء ، لكن .. كان الله يريد أمرا غير الذى يدعو به الرجل ، فباتت دار (حسن) وقد غطاها حزن لا يفترق كثيرا عن حزنهم



أحس أن البقرة التى سال دمها
تطالبه بما يطالب به الضحايا ...

على إنسان .

❊ ❊ ❊

لكن الأمل عاد فداعب (حسن) عصر اليوم التالى .. إنه يعمل مع سيد كبير هو البيه الصغير ، ولما قابله ذلك العصر كان الشاب متوقعا أن يسأله السيد عن سبب همومه ، فلما خاب ظنه حاول الشاب أن يتطوع فيبثه الشكوى ، وكان عليه أن يتلطف فى الأمر فقال له :

— لقد حدثت عندنا حادثة كبيرة .. ليلة أمس يا سيدى .

فأجابه السيد فى قلق :

— حادثة كبيرة فى أرضى أنا ؟

فاستدرك الشاب قائلا :

— لا .. فى أرضى أنا . إن ... بقرتنا قد ذبحت أمس . فابتسم السيد وحل المشكلة بنكتة لطيفة : « تعيش يا سيدى » وولاه ظهره ومضى .

❊ ❊ ❊

ولم يطق الشاب بعد ذلك أن يغسل الحصان أو يقود الكلاب . فأحس أن البقرة التى سال دمها ليلة البارحة تطالبه بما يطالب به الضحايا ، فعاد إلى القرية وهو مصمم على ألا تطأ أقدامه بعد ذلك أرض البيه الصغير .

وكان فى شرود ليلة أمس . ليلة نادته حبيبته فى الظلام وأسرت إليه بما أحزنه ، وتكرر الموقف فقد سمع همسا يناديه . لكنه كان من صوت أغلظ . فوقف وتلفت ، وصدرت منه شهقة المفاجأة حين رأى بين يديه صديق صباه .. سعد محمود .. آت من السفر فى عطلة قصيرة ليزور أهله ، ومعه (سبت) تفوح منه رائحة الفواكه ، وسأله عن حاله ، وسأله سعد

عن حاله . وعرف كل منهما حال صديقه .

و لم يكد حسن يفرغ من طعام العشاء حتى عرف طرقات صديقه على باب الدار ، واتفقا على السفر معا ... وهنا فى كفر الزيات فى أحد المصانع وقف الشاب أمام غموض الآلات مبهور النظر ، ثم .. تغيرت حاله .

وكان ذلك منذ عامين . نعم ... ومصمص الشاب بشفتيه حين عاودته هذه الذكريات ، وأحس بسعادة الجريح الذى برئ ، وكان قطار البضاعة قد أخلى الطريق منذ لحظات لقطار قادم من الشمال .. وعلى الشريط الحديدى انعكاسات النجوم . ووثب الهدير ودخل قطار الركاب ، فرأى من النوافذ فتاة فتذكر زينب التى ستزف إليه بعد أسبوع ، والبقرة التى كانت تملكها أسرته . تلك التى حررته بدمها دون أن يشعر .

الأمم الروم

كان ميلادها سابقا لميلادى .. ليس فقط .. بل سابقا لميلاد أبى ، وقيل .. إن جدى رآها وهو صغير . وسمع شقشقة العصافير فوق أغصانها ، فى زمن لم يكن الناس فيه كثيرين ولا مطالب الحياة مرهقة ولا كثيرة .

كانت إحدى أشجار السنط .. وحيدة على باب الحارة ، وعلى مقربة منها فضاء واسع وبحيرة راكدة الماء ، تظلل أغصانها الدور والطريق وإن زعموا أن الشيخوخة قد أدركتها . وكنا نرى ذوائب فروعها على بعد عدة كيلومترات لارتفاعها ، أما جذعها فقد كان فى الحقيقة موطن السر والسحر والجاذبية .. هو الذى حببنا فيها ونحن أطفال ، وجعلنا ندور حولها باستمرار كأنها أم لكل طفل فى الحارة . كان ضخما كثير التعاريج فيه تجاويف وأخاديد وفجوات ، وصنعت منه الطبيعة مقاعد صغيرة تعجب الأطفال . وفى الفجوات التى تجمعت بينه وبين الأرض كان السحر والجاذبية . فمنه ينبعث نقيق الضفادع فى الليالى المقمرة ، ونحن نلعب على مقربة من أمنا الرءوم .. هذه الشجرة . وقد نتخيل أن دجاجة وضعت بيضها فى إحدى فجواته ، فنجد فى البحث عنه ، أو ثعبانا لجأ إليه ، فنملأ الفجوة بالماء ، أو نشعل عند بابها النار .

وحفرنا على الجذع أسماءنا بالمسامير ، وجمعنا منه الصمغ للحاجات المدرسية ، وعلق المجاذيب فيه المصابيح فى مولد ولى الله ساكن القرية ، وسمعنا تحتها الأذكار ، وعلق الجزار فيها ذبيحة يوم العيد ، وعلى الفرع المتطامن غير

العالى كنا نصعد ونحن آمنون لنشد فيها حبال المراجيح .

وفى فصل الخريف حين يرتفع ماء البركة قليلا بفعل الفيضان ، تتحول تلك البقعة إلى شيء ساحر ، فتفرش الأرض الندية أزهارها الصفراء التى تسمى زهرة الفتنة ، ويهيم تحتها نوع من الفراش كنا نطارده ونصيده .

وفى الليل تنعقد جنب جذعها حلقة الصبيان ؛ ليتحدثوا عن الأعياد أو الأبطال والشياطين،أو ليخوضوا فى تاريخ هذه الشجرة ، وكل منهم يزعم أن جده هو الذى زرعها .

كانت على مقربة من دارنا ، ويخيل إلى أننى أراها أكثر مما يراها غيرى — ليس بعينى من النوافذ العليا ، بل بقلبى وإن أغمضت عينى .

كتبت على جذعها أول حرف تعلمته فى المدرسة ، ثم نقشت عليه اسمى . وعندما كان ينشب الخلاف بيني وبين أحد فى الدار كنت ألجأ إليها بدموعى ، ولما كبرت ورحلت عن القرية لأتعلم فى المدينة ، أحسست وأنا أفارق وطنى الصغير أنها رمز لكل شيء فيه منذ لحظة الميلاد حتى تلك اللحظة،فلما غابت عنى ذوائب فروعها كففت عن التلفت نحو قريتى .

ثم رأيت فى المدينة أشياء جديدة بهرت عينى حقيقة وسحرت لبى . ولما رأيت الهرم الأكبر شعرت بإحساس غلام فى الثالثة عشرة من العمر أنه حقيقة شيء ضخم ... مثل . مثل تلك الشجرة التى تركتها فى وطنى على باب الحارة وفروعها على مقربة من الدار ، لكنها كانت تمتاز عنه بأنها أكثر حنوا ، وإن كان هو أكثر جبروتا وقوة .

وكانت سنواتى الدراسية تمر وأغيب عن القرية وأعود فأجدها كما هى ... كأنها فى انتظارى . وجيل جديد من الأولاد لم يشب بعد عن الطوق

يفعل نفس ما كنت أفعله مع صبيان جيلى . يعلقون المراجيح فى الفروع المتطامنة ، ويوقدون النار دفاعا عن فجواتها من دخول الثعابين ، ويستمعون إلى سمفونيات الضفادع فى الليالى المقمرة .

وكنت أحيانا أذهب لأفتش على جذعها عن الأثر الذى رسمته عليه بالمسمار . غير أن أغصانها كلما كبرت كانت توحى إلى بأفكار جديدة ، فكنت عندما أسمع أزيزها فى الليل وأنا فى إحدى العطلات أتخيل أنها تنظم شعرا . وكدت أشعر أن روحا غريبة تتقمصها بحيث تبدو وكأنها شيء حى.

وفى عطلة الصيف كنت أجلس متكئا على جذعها وفى يدى كتاب أدب أو ديوان شعر ، وعلى الجانب المقابل لى بحيث لا أراه قد استلقى فلاح عجوز غارقا فى النوم وكأنه يحلم بذكريات طفولته تحتها .. بالتالى .

⁂ ⁂ ⁂

وفى سنوات الحرب الثانية لم ينج الريف من الخراب ..

كنت أيامها شابا فى مقتبل الحياة قد فرغت توا من إتمام دراستى ، وبدأت أتأهب .. ل .. لأعيش .

كانت المدن الكبيرة تعيش تحت سلطان الظلام طوال تلك السنوات ، وكنت فى إجازتى الطويلة والقصيرة ألجأ إلى الريف لأن ظلامه ليس بسبب إطفاء الأنوار بل لعدم إضاءتها .. كان طبيعيا إن لم يبدده القمر .

وكنت أجتاز الحقول بعد نزولى من قطار الظهر فى شهر يوليه ، والشمس برتقالية حمراء،وليس أحد بانتظارى،وليس معى متاع،فراعنى أن أجد معا لم الطريق متغيرة.رأيته مثل طائرا نتفوا كل ريشه فوقف عاريا مطرقا مرتعشا..

كانت الترعة ممدودة بين الحقول الخالية بعد حصاد القمح ،



وأغيب عن القرية وأعود فأجدها
كما هي .. كأنها فى انتظارى !.

وكأنها شريان فى جسم ناحل .. والمهم .. المهم جدا .. أنه لم يكن على شطها شجرة واحدة لا على اليمين ولا على اليسار ، وكدت لا أعرف البقعة .. كأنها حسناء جزوا شعرها . لكننى أدركت السبب .. الحرب .. الوقود .. النار .. النار التى تريد شيئا تأكله ... وتمتمت وأنا أمسح عرقا متربا بمنديل أبيض من على جبينى : النار .. يقذفون لها بالبشر والشجر فى هذه الأيام .

وسكتت أفكارى لحظة وأنا أحس حرارة التراب على الطريق ، ثم خفق قلبى فجأة لأننى وصلت إلى القنطرة التى يجب أن أرى من عندها ذوائب الشجرة التى أحبها ...

سألت نفسى : هل باعوها ؟ . هل قطعوها ؟ .

وضحكت لأنه خيل إلى فجأة أننى طفل يستميت فى الدفاع عن قطعة من الورق الملون . لكن خوفى زال تماما حين لاحت لعينى ذوائبها الباسقة تعلو فروع النخل .

***

وفى ساعة القيلولة كنت منكئا على جذعها وفى يدى صحيفة الصباح أقرأ أخبارا عن الحرب ، ويناقشنى فيها فلاح عجوز يوازن بين هذه الأحداث وأحداث الحرب الأولى .

وشقشق فوق رأسى عصفور ، فرفعت رأسى إلى أعلى ورأيت شبكة الأغصان الخضراء وقد تخللتها زرقة سماء صيفية رائقة ، لكننى خفضت نظرتى لأن الفلاح الذى بجوارى وجه إلى سؤالا طابعه يحمل القلق :

— هل تعلم ؟

ـــ بماذا ؟

ـــ بماذا ؟ ألا تعلم حتى الآن ؟

ـــ لا .

ـــ ألم تر طريق المحطة ؟ هل رأيت عليه شجرة واحدة ؟ .

ـــ صحيح .. لكن ... ماذا تعنى .. ؟

فتنهد واعتدل فى جلسته هاما بالانصراف ، وأشار إلى الشجرة وقال :

ـــ جاء دورها .

ونفض جلبابه من آثار التراب وتركنى ومشى .

***

وبقيت وحدى جالسا أفكر ... أحسست بحزن عميق لكنه متصف بالسذاجة. أحسست كأن عدوانا سيقع عل وطنى ،ورأيتنى صبيا من جديد يوقد النار على باب فجوات الجذع ليدفع الثعابين عن الدخول إليها .

وهبت نسمة عزيزة العبور فأزت الأغصان ...

سمعت حفيفها كأنه وداع،لكن ما لبثت أن هبطت إلى عالم الواقع لأسأل نفسى :

ـــ من الذى يملكها ؟

وعرفت الجواب ... إنها ليست ملك أحد معين . إن كل سكان الحارة يدعون ملكيتها . إذن فلن تباع ... سيدب الخلاف بينهم إلا إذا اتفقوا على قطعها .

وسافرت بعد أسبوعين .

وكان الوقت ليلا ليلة رحيلى . فاجتزت تحتها شبكة من ضوء القمر ،

وسمعت فوق أغصانها حلم أحد الطيور ، وملأت أنفى رائحة أزهار الفتنة ، وتذكرت الحرب .

ومكثت فى المدينة ثلاثة شهور ثم عدت فى إجازة قصيرة من نفس الطريق .

وعند القنطرة .. خفق قلبى .. رفعت رأسي لأفتش عن أول معلم من معالم وطنى فلم أجد ذوائب الأغصان. كانت السماء مكشوفة هناك كأنما رقعة الفضاء قد اتسعت ، وأحسست أننى سأتوه . سأتحول إلى قرية أخرى لأبحث عن دارنا ، والشمس تنحدر نحو المغيب ، لكننى قلت كأنما لأعزى نفسى :

« النار .. إنهم يرمون لها بالبشر والشجر .. وليس الشجر أغلى من البشر » . وتنهدت وأنا أعبر قنطرة أخرى ، وأنظر إلى شجرة صغيرة يسقيها فلاح على رأس حقل .

وفى الليل عندما كان القمر يتلألأ ليدل الطائرات المغيرة على الأهداف فى العواصم ... كان السكون يشمل الريف ، ولم يكن هناك أغصان ينفذ من بينها ليلقى شبكة من النور على البقعة المعهودة ، وكان هناك فجوة كبيرة مكان الجذع ، حفروها ليأخذوه سليماً ثم تركوها بلا ردم ، لأنها ذهبت منذ أسبوع ، وكانت مياه الفيضان قد ارتفعت فملأ الرشح موضع الشجرة .

جلست على حافته أستمع إلى نقيق الضفادع ، وأرى صورة القمر وقد انعكست فيه كأنه ماء بحر ، وعلى المرآة الصغيرة طافت ذكريات أطفال ورجال ، حتى أفقت على صوت الفلاح الذى كان يحدثنى فى المرة السابقة وهو يقول :

ـــ باعوها يا سيدى ... باعوها ... ليتهم يتفقون على كل شىء بسهولة كما اتفقوا على قطع الشجر وقتل البشر .

عَوْدَةُ النُّورِ

« وعرف أن هناك قوة عليا تعطى كل القوى
وهى التى منحت طمأنينة القلب ونور العين»

كان يذكر تاريخ حياته كأن كل شيء وقع أمس ...

كان فى حجرة صغيرة فى مستشفى صغير ، جميل هادئ .. لكن .. كان جماله شيئا لا يراه إلا الأصحاء ، أما هو فكان لا يرى إلا جمال العافية على وجوه الذين يزورونه ..

وحين طافت به ذكريات الماضى تمنى أن يعود صبيا كما كان ، يجرى على تراب القرية ، نعم ... وبذلك تعود إليه شجاعته فى تحمل الأمراض التى كان يستمدها من طبيعة سنه ، وطبيعة طمأنينة الإيمان التى كانت لا تفارق وجه أمه المستطيل الناصع البياض ، وهى تجرى كفها على خده فى ابتسام واهن وتقول له :

ــ لا تخف يا بنى ... لا تخف ؛ فإن قلبى مؤمن بأن الله سيشفيك .

وكان فى هذه الفترة قادرا على أن يطمئن بواسطة أمه ، أما اليوم ... فى وقته الحاضر ... فى هذه الفترة التى يرقد فيها فى المستشفى الجميل على السرير الصغير فإنه عاجز .. عاجز .. تماما .. عن أن يطمئن بقلبه هو .. أو قلب الطبيب العظيم الذى يشرف على علاج عينه بعد إجراء العملية فيها .

وأخذ يسأل نفسه بعد أن أغمض عينه الأخرى وسبح فى الظلام :

ــ ترى هل لو كانت أمى موجودة ... هل كنت اليوم مستطيعا أن

اطمئن بواسطة قلبها ؟

وتأوه ، وتقلب فى فراشه ، وأمسك صحيفة الصباح ليقرأ العناوين الكبيرة وليعرف كيف تسير الدنيا . وبدت الخطوط مثل شعب الأخطبوط ملتوية غير واضحة فتألم . وأخذ يتذكر حادثة كبيرة وقعت لنفس عينه وهو صبى ، وقبل أن يتعلم ويصبح طبيبا باطنيا لا بأس بحاله .

كانوا فريقين من الصبيان يلعبون لعبة خطرة ... هى لعبة الحرب . أسلحتهم أعواد من حطب الذرة الطويل ، وميدانهم الجرن الواسع الواقع أمام الدور . وكان الطبيب (قائد فرقة) .. ولبسته الشجاعة ، وحفزته الحماسة ، فهجم متقدما وهجم وراءه الصبيان . وكانت عيدان الحطب مشرعة نحو الأمام كأنها رماح تطعن . وخاف العدو ، وصمم قائدهم أن يسدد له طعنة .. فجاءت فى الصميم ... أين ؟ فى نفس عينه .. التى يرقد بها فى المستشفى اليوم ويشرف على علاجها طبيب كبير ...

وابتسم الطبيب المريض ، حين ذكر أن الحرب وضعت أوزارها فى الحال ، وأنه فى اليوم التالى رأت أمه عينه وكأنها كأس من الدم ، وكانت شديدة المخاوف نحو أمراض العيون ، لكنها بعد أن سلمته ليد طبيب صغير الشأن كان يعالج كل الأمراض فى المركز — أسلمت أمرها إلى من خلق الداء والدواء ... إلى الله . واستطاع هو يوم رأى الطمأنينة على وجهها ، والسلام يفيض من القلب والملامح . استطاع أن يطمئن إلى كل شىء ...

وتقلب وتنهد وسأل نفسه : هل لو كانت أمه موجودة اليوم لكان فى مقدرته أن يطمئن بواسطة قلبها ...

***

واتاه الجواب بعد أن انتهى الرنين المبحوح الذى يرسله جرس فى أحد الممرات ، وقال الجواب : لا .

وتأسف ، وهز رأسه ، وأغمض عينه الأخرى ، وتخيل فى عالم الصمت والظلام بعد المسافة بينه وبين الطمأنينة ، وتوالت على رأسه الخواطر حين تذكر بعد المسافة ، فتذكر الصواريخ التى يطلقونها فى الفضاء ، والكواكب التى أصبحت هدفا ، والأفلاك والنجوم .. والكون .. الكون العجيب الذى أثار العلم وهز إيمان العلماء .. والإيمان الذى يبحث هو عنه الآن ليكون على يقين من أن النور سيعود لعينه ، وأنها لن تصبح مثل النافذة المقفلة فى واجهة البيت .

وتنهد لأن هذا الشىء الذى يوجد فى القلوب منحة سماوية ، من يد قوة أعطت كل القوى .. المغناطيسية والجاذبية ونظام الأفلاك ، وهى التى تملك أن تعطى طمأنينة للقلب ونورا للعين ...

ودخلت الممرضة تسأل بوجه أصبح الابتسام صنعة له :

ـ هل تريد شيئا يا دكتور ؟

وبلع ريقه ، ونظر طويلا ثم قال :

ـ نعم .

ـ نعم ؟ أمرك .

ـ أجلسى قليلا . هل لك أم ؟

فهزت رأسها :

ـ لا .

ـ ماتت ؟

ـــ بعد ميلادى بشهرين .

ـــ وعندما كنت تمرضين من كان يجلس إلى جوارك ؟

ـــ لا أحد .. لكننى لا أخاف المرض ولا الموت فى هذه الفترة .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأننى كنت أشعر حين أخذت منى أبى زوجة أبى ، أنه لا أب ولا نصير ولا معين إلا هو ...

(وأشارت إلى السماء) عن إذنك . إن جرسا يطلبنى .

* * *

وفكر الطبيب :

« إن أحسسنا أنا محتاجون إلى شىء ما أحسسنا بوجوده » وتنهد، وقال بخجل شديد :

ـــ « آه ... إننى محتاج إليك يا رب » .

لكن لماذا كان خجلان ... ؟

كان يسخر بينه وبين نفسه من بعض المرضى الذين يحاولون أن يقاوموا باليقين كلمة قالها العلم فى مرضهم . وحضر إلى ذاكرته شخصية مريض بالكليتين كان يشرف على علاجه ، وأنذره يوما أن مضاعفات خطيرة ستحدث له إذا لم يسر على النظام المطلوب ، فابتسم له بوجهه الأصفر وقال له : « إن الكلمة الأخيرة ليست لك » .

وفهم ما يعنيه ، لكنه هز كتفيه وأغمض عينيه ، وهو لا يذكر إلا قوانين المادة .

وعاد يتمتم بعد أن فتح عينه الأخرى :

« إننا نحس وجود كل شيء نحتاج إليه ، وكلنا محتاجون إلى الله ...» .

ودمعت عينه السليمة وأكمل : « وأنا أشد الناس حاجة إليك يا ربى .. » .

و لم يعد بعد ذلك يفطن لشيء ، بل كان فى مكان فسيح فيه غلمان يلعبون لعبة الحرب ... بطريقة رديئة كما يفعل الكبار ... تماما ... وغلام عينه مجروحة من طرف عود ، وأم بيضاء الوجه مستطيلة تبتسم فى يقين بعد أن أسلمته لطبيب رومى يحقن المرضى بالمرارة بنفس الحقن التى يعطيها للمرضى بالقلب ...

كان يحلم ...

واستيقظ على يد تدق الباب برفق ، وفتح عينا واحدة فرأى طبيب العيون ، ووراءه ثلاثة ، يدخل فى أبهة العلم وصولة المادة ، وسأله فى قلق مكتوم :

— هيه .. وكيف الحال اليوم ؟

— الحال ؟ .. كل ما هناك أنى أحس بنور يغمر قلبى . فأجاب مبتسما فى شبه دعابة :

— أرجو أن ينتقل إلى أعلى ... إلى عينك .

— يارب .

ورفع الطبيب الغطاء بعد ثلاثة أسابيع ، وصرخ الطبيب ، الطبيب المريض لا الطبيب المعالج ، صرخ قائلا :



وتنهد ... لأن هذا الشيء الذى
يوجد فى القلوب .. منحة سماوية

ـــ دكتور ... دكتور ... أنني أرى وجهك بعينى المريضة .. لا .. ليس .. وجهك .

كان يتكلم بلهجة محمومة فيها فرح وحزن وضحك وبكاء ... واستطرد ...

ـــ لا ... ليس وجهك ... إنه وجه أمى الحنون المطمئن .. لا .. بل إنه وجه اليقين .. وجه الله .

هَذهْ السَعَادَة

كانت الفرحة تغمر قلبه على الرغم من أنه ملىء بالقلق ، وهو يجلس بعيدا عن الصالة ينظر إلى باب الحجرة محبوس النفس ، منتظرا بين لحظة وأخرى أن ينفتح الباب عن وجه سيدة تلقى إليه بكلمة واحدة ... لكن هذه الكلمة الواحدة عاش بانتظارها خمسة عشر عاما على التقريب .

وخيم على الغرفة الموصدة سكون شامل ، فاضطجع محمود على كنبة قريبة من الشباك وأخذ يتسلى بالنظر إلى الحارة التى غطاها الظلام ، واسترسلت أفكاره فذكر حوادث قديمة وأخرى حديثة ، قطعها عليه بعد لحظات صياح ديك فى حظيرة على أحد السطوح ، أعقبته دقات ساعة حددت الثالثة صباحا ، فتنهد والتفت نحو الباب ، وما كاد يركز عليه بصره حتى سمع أنة خفق لها قلبه وساد بعدها الصمت . ثم ... انفرج الباب عن وجه سيدة ضاحكة الأسارير نادت بصوت مهموس ممدود فرحان ساحر وهى تقول :

— محمود .. محمود .. مبروك .. غلام .. فكر فى اسم جديد وجميل .

وأقفلت الباب وتركته يتخيل . فرجع بذاكرته نحو أحب مكان إليه وأعز ناس عليه ، وترقرقت فى عينيه دموع الفرحة والأسى ، فقد ذكر داره التى تركها منذ أكثر من سنة قبل أن يأتى إلى مدينة دمنهور ويشتغل فى أحد محالج القطن . وكانت سنه تسعة وثلاثين عاما ، خلى البال موفور الصحة يملك قطعة أرض تزيد على فدانين وتقع بين مزرعتين كبيرتين لاثنين من الإقطاعيين ، وعلى رأس قطعة الأرض الصغيرة بنى دارا من الطوب اللبن شاركه فى سكنها أبوه وإخوته الصغار ، وبقيت أسرة هذا الفلاح الصغير بين

المزرعتين الكبيرتين وسكانهما المترفين أشبه شيء بتأنيب الضمير .

نعم .. كان يتذكر كل هذا حين انفتح باب الحجرة مرة أخرى وأطل منه الوجه الصبوح الباسم ، وقالت صاحبته :

— اتفضل .. ادخل لترى ابنك ، (ثم أكملت وهى فى طريقها إلى الخارج) أما أنا فسمهمتى انتهت .

***

وقبل الأب وجها ظل ينتظره خمسة عشر عاما. وجها صغيرا مستديرا كأنه ريال من الفضة يصرخ بلا وعى، ثم رفع وجهه إلى زوجته فرأى الفرحة قد أضاءت وجهها الشاحب، فجلس على كرسى قريب منها وسألها فى مرح قائلا:

— هيه .. ماذا تريدين أن نسمى مولودنا يا زينب ؟

فرقصت على وجهها معان غامضة لم يتبينها زوجها ، ثم قالت :

— نسميه .. نسميه .. ماذا نسميه ؟ .. نسميه عادل .

فدق زوجها كفا بكف وانفجر ضاحكا . أما هى فقد كانت تغالب الضحك وتريد أن تمنعه لأنه يؤلمها . وكان المولود مسترسلا فى البكاء فغطى جو المكان شيء متناقض لكن السعادة كانت تفوح من أرجائه .. وبعد لحظة قال الزوج :

آه لو كنا هناك وعملناها ، لو قدر لنا أن نخلف هذا الولد الجميل .. ثم نسميه عادل .. لو فعلنا ذلك يا زيىب لحدث لنا ما حدث لحسن أبو الغيط .

وضحك .

فسألته زوجته لأنها نسيت :

— وماذا حدث لحسن أبو الغيط ؟

فأجابها الزوج :

ـــ كان أحد أنفار الباشا صاحب العزبة القبلية ، وكان وحيد أمه ، فلما أعفى من القرعة العسكرية لأجلها زوجته بسرعة ، وطلبت من الله أن يخلف بسرعة ويكون المولود ولدا ، واستجاب الله دعاء الأم ، ومن فرط فرحتها سمت ابنها على اسم ابن الباشا .. سمته عادل . ولقيت ابن الباشا على الطريق ذات صباح ، واعترضت طريق فرسه وأخبرته الخبر ، وكانت رافعة وجهها إليه تحدثه ، ولما انتهت من الحكاية رأت عادل بك يتحسس جنبه فأدركت أنه سيمنحها هدية لطفل سمته على اسمه .. خمسة جنيهات على الأقل .. لكنها فوجئت بأنه ضربها بقدمه التى فى الركاب ، فوقعت على الأرض ومشى بحصانه ..

ثم سكت الأب .. وحملق المولود الصغير فى السقف تحت عينى أمه كأنه يرى هذه الدنيا الجديدة . وخيم سكون ، ثم قالت الأم :

ـــ لقد تركناها لهم . نعم .. ليشبعوا بها . فقد كانت أرضنا بين عزبة والد عادل بيه والعزبة البحرية .. لكن الله هو الذى أراد هذا يا محمود . فلو أن صاحب العزبة البحرية لم يبع جزءا من أرضه لوالد عادل بيه ، لما دخلت أرضنا وسط أرضه .. و ..

وخنقتها الدموع حين تذكرت موطنها ، والحقول التى شهدت أزهى أيام شبابها ولقاءها هى ومحمود ساعات العمل ،أيام دب الحب البرىء إلى قلبيهما قبل الزواج . ثم .. ذكرت الليالى الأخيرة لهما قبل الهجرة ، فسمعت زوجها يقول :

ـــ هل أنت حزينة يا زينب ؟ .. لا تحزنى .. لقد عشنا هناك خمسة عشر عاما بعد الزواج نطلب من الله الذرية ، فلما انتقلنا إلى دمنهور حقق الله



هل أنت حزينة يا زينب ؟! .. لا تحزنى

رجاءنا .. ومع ذلك ..

وسكت وتنهد . وقام إلى الطفل وقبله ، ونظر إلى زوجته قائلا لها :

ـــ نحن لا نعرف ماذا سيحدث غدا . لقد سمعت الباشكاتب يقول اليوم فى المحلج كلاما يشفى النفوس ، سمعته يتحدث عن الإصلاح الزراعى ويقول إن الأرض ستوزع على الفلاحين ، فتذكرت دارنا يا زينب ... والأرض التى اشتراها والد عادل بيه منا بالقوة ... أليس من الجائز أن يتحقق هذا فى وقت قريب ؟

فقالت الزوجة بشبه عتاب :

ـــ كان من الممكن أن تعيش هناك لولا طبعك يا محمود !

فأجابها ثائرا :

ـــ لولا طبعى ؟ .. هل كان من الرجولة أن أسلم له بطلبه الظالم من أول كلمة يقولها ؟ كان ممكنا بالنسبة إليه أن يعطينى أرضا بدل أرض . أى قطعة متطرفة فى عزبته .. لكنه كان يتحرش بى .. هو فى الحقيقة كان لا يريد وجودى هناك ، بدليل أنه لم يطرد أبى ولا إخوتى ، وأنت تعرفين السبب يا زينب .. السبب هو أننى علقت فى عدة مناسبات على حادثة العجوز المسكينة أم حسن أبو الغيط ، وقلت فى عدة أماكن أنه لو كان يفهم لسره أن الناس يطلقون اسمه على بنى آدم .. على الأطفال الذين يولدون .. لكن عجرفة عادل بيه وضيق فهمه جعلته يأنف أن يسمى حسن أبو الغيط ابنه على اسمه ، فركل العجوز برجله وهى فى الركاب ، فلما قابلنى عادل بيه وسألنى عن الحادثة رأيت خلفه أحد أتباعه ، وقبل أن أجيب نظرت فى عينى الرجل الذى خلفه فعرفت أنه من شهود الحادث ، فلم تهن على رجولتى ،

فاعترفت .

وسكت محمود .. ثم قام نحو النافذة وأخذ قلة باردة الماء وشرب منها ، ثم عاد ، وقال بصوت حزين :

ــ وبقية القصة ... أنت تعرفينها ...

لكنه ما لبث أن ضحك فجأة وقال :

ــ ولماذا نحزن ؟ لقد من الله علينا بغلام بعد حرمان طويل .. اسمعى يا زينب .. اسمعى يا بنت .. أليس من الجائز أن يكون هذا الولد طبيبا .. أو مهندسا .. أو ضابطا .. أو أى شخص عظيم .. ؟ الدنيا تغيرت يا بنت .. الدنيا تغيرت صدقينى ؛ فإن الباشكاتب يؤكد هذا كل يوم .

فتأوهت زوجته وانقلبت على جنبها وقالت له :

ــ وجائز أن نعود إلى بلدنا ومعنا ولدنا .. يا سلام لو وقعت عليه عين أمى .. لو رأته لذهب عنها المرض .

* * *

كان أطفال البيت الصغير الذى ولد فيه هذا المولود يحتفلون بسبوعه ، وكانت الشموع والزغاريد والضجيج تملأ المسكن حين دق على باب الشقة طارق يسأل :

ــ محمود أبو الغيط موجود ؟

فقال طفل صغير وهو يرفع الشمعة فى وجه الطارق :

ــ نعم ... موجود .

وخرج الأب ليرى المسألة ، فإذا به يجد نفسه وجها لوجه أمام أخيه الصغير وكانت اللهفة ظاهرة على وجهه ، فلما استوضحه الخبر عــرف

أن أمورا عظيمة قد جدت فى القرية ، وأن ما كان يتحدث عنه الباشكاتب ، قد حققته الثورة ، فسأل محمود :

ـــ وماذا تريدون منى ؟

فأجاب أخوه :

ـــ يجب أن ترجع إلى البلد ... ستأخذ خمسة أفدنة فى عيد الثورة .

فوضع محمود كفيه على رأسه كأنما قد صحا من غيبوبة وقال :

ـــ خمسة أفدنة من أرض عادل بيه وأرض الباشا ؟ .. كل هذا يحدث بسرعة ؟ .. يا سلام ... وأعود ومعى ولد أسميه أى اسم أختاره دون أن أخاف ضربة برجله وهى فى الركاب .. هذا والله شىء عظيم ...

وسكت ثم رفع صوته يسأل :

ـــ فى أى شهر نحن الآن يا أولاد ؟

فجاءته أصوات صبيان يتعلمون فى المدارس :

ـــ فى شهر يوليه يا عم محمود .

فهمهم كأنه كان لا يعرف ، ولما انفض الناس قرروا أن يسافروا فى أقرب وقت .

* * *

كانت الشمس مائلة إلى الغروب ساعة نزل محمود هو وزوجته وابنه من القطار ، وعلى مسافة كيلومتر واحد كانت مبانى القرية رابضة .. وقلبت هذه الأسرة نظرها فى كل ما حولها كأنما ولدت كل أفرادها من جديد ، وكان الطفل الصغير موضع القبلات والحب والتحية من أقارب الأب والأم ، ولم يناموا من الفرح .

وعندما أصبح الصباح سأل الجد فى حماسة عن صحة المولود ، فقال أبوه :

ـــ لقد ذكرتنى يا أبى .. لقد نسينا أن نقيد ابننا فى دفتر المواليد ونحن فى دمنهور ... وما دام الأمر كذلك فسأذهب لأقيده هنا .. حيث قيد اسم أبيه واسم جده .

وبعد ساعة كان الصراف يفتح الدفتر الكبير ليكتب اسم المولود الجديد : عادل محمود أبو الغيط . ونظر الصراف إلى الوالد نظرة فهم معناها ذكرته بحادثة المرأة العجوز ، فابتسم له محمود فى فرح وقال له : ولا تنس يا حضرة الصراف أننى سأملك خمسة أفدنة فى هذا الشهر ... سلام عليكم ... مال ... وعيال ... هذه هى السعادة .

سفينة النجاة

تبعد محطة « التوفيقية » عن قريتنا بضعة كيلومترات ، ويتحتم على المسافرين إلى مدينة طنطا من أهل قريتنا أو القرى القريبة أن يركبوا إلى هذه المحطة ، ليأخذوا القطار منها إلى المدينة .

وكانت فرحتى عظيمة فى ذلك اليوم ... يوم صحبت أبى إلى المحطة ليركب منها إلى مدينة طنطا ، وكانت مهمتى الرئيسية فى هذه الرحلة هى أن أعود بالركائب إلى القرية من جديد ؛ لأنه كان من المقرر أن يقيم أبى فى المدينة ثلاثة أيام كاملة .

كنا فى أخريات النهار والفصل شتاء ، والطريق مرتفع عن مستوى الحقول ، وتكثر الأشجار على جانبيه ، والدواب تسير الهوينى بى وأنا وأبى والجو مشمس ولو أنه مائل إلى البرودة .

وكان أبى سعيد النفس منشرح الصدر فى هذا النهار ، يدور معظم حديثه عن حسن طالعه فى صفقة القطن التى باعها ، فقد بارك الله مرتين أولاهما فى المحصول والأخرى فى السعر وهو لذلك مسافر إلى المدينة ليشترى لكل فرد من أفراد أسرتنا شيئا ... وأهم الأشياء التى سيشتريها ثياب من الصوف والكستور ، وملابس داخلية ، وقرط من الذهب لأختى الصغيرة .

ونظر أبى نحو الغرب يطالع قرص الشمس الذى يحلق ناحية الأفق ، فرأيت على فمه ابتسامة سعيدة ... سعيدة جدا ... عرفت سرها بعد أن صرت أبا .
فقد تعلقت أختى الصغيرة يومئذ فى عنقه وقبلته فى خده الشائك ، حين

أعلن لها أنه سيهدى إليها قرطا من الذهب بمناسبة بيع محصول القطن .

وقبل أن تتلاشى هذه البسمة على ثغر أبى سمعته يقول :

ـــ اسمع يا حسنى ... أظن أنه يجب علينا أن نجتهد فى السير شيئا ما ... يجب أن نحث الدواب لأننى أخشى أن يسرقنا الوقت ويفوتنى القطار ...

وحرك كل منا عصاه وألهب بها كتف الدابة التى يركبها .

وكانت وجوهنا نحو الشمال ، فكنا نحس مقدار برودة الجو على أطراف أنوفنا لأن رءوسنا كانت مغطاة بالتلافيع .

***

وكان على أن أعود بالركوبتين بعد أن تحرك القطار بأبى ، وكان يلوح لى بكفه من النافذة فى فرحة من يسافر إلى الأرض المقدسة . وحمل إلى الهواء صوتا أعلى من زفير القطار وهو صوت أبى يقول لى :

ـــ حسنى ... لا تنس أن تقابلنى يوم الجمعة فى قطار الظهر ، مع السلامة .

وركبت ركوبة وسقت أخرى أمامى . وبعد أن غادرت مبنى المحطة بربع ساعة لاح لى الطريق خاليا كئيبا . ولم يكن الوقت موسم زرع ولا حصاد فاستتبع ذلك ندرة الناس فى الحقول . ومالت الشمس للمغيب فخيل إلى من فرط وحشتى أنها غربت قبل الميعاد . ولم أكن أسمع إلا وقع حوافر الدواب على الجزء الجاف من الطريق الذى لا يزال يحمل آثار مطر قديم .

وحاولت أن أستعيد فكرة مسلية ... وترنمت بأغنية بعض الوقت ، ثم وجدت نفسى وقد كففت عن الغناء لأن الوحشة غلبتنى على أمرى .

وكان على أن أقطع سبعة كيلومترات بعد غروب الشمس ، ولم يكن

فى ذلك من بأس فأنا شاب ريفى لا يضيرنى ذلك ، لكن المشكلة كانت فى التغير المفاجئ الذى لحق الجو .. فقد اشتد هبوب الريح حتى كنت أمسك نفسى على ظهر دابتى ، وأراقب فعلها فى تمايل النخل واضطراب أوراق الشجر .. وزحف من ناحية الشمال فى مديريتنا المعروفة بكثرة الأمطار — سحاب كثيف زاد من حلكة الليل ، ورسم من أشباح الشجر هيا كل مخيفة .

قلت فى نفسى وأنا ألهب ظهر ركوبتى بالعصا: كل شىء يحتمل إلا الأمطار فى هذه الليلة ، ذلك لأن الطريق كان حديث عهد بالمطر ، فإذا سقته السماء مرة أخرى فإنه سيتحول إلى طريق مرصوف بالصابون لا تستطيع القدم الواعية ولا العين البصيرة أن تحفظ توازنها عليه . فلما اشتدت مخاوفى لم أغن ولم أصفر بفمى ، بل أخذت أهمهم بالدعاء .

غير أن الظروف جميعا كانت أقوى من دعائى فأخذت السماء تمطر ، وكنت أسمع وقع حبات المطر على فروع الأشجار كأنه صوت النار ترعى فى الهشيم . وتبللت ثيابى وقلّت تبعا لذلك سرعة الدواب ، فأصبحت فرصة تعرضى للمطر أطول بطبيعة الحال . عند ذلك شرعت أفكر بسرعة وأزن المعركة كما يفعل القواد ، فهل كان من الممكن أن أنحدر من على الطريق إلى إحدى القرى فألوذ بأى مكان حتى الصباح ؟ وهل هذا أفضل لى من مواصلة السير فى المطر والظلام ؟

ووجدت الفرض الأول شبه محال لأن الطرق الفرعية المؤدية إلى أقرب قرية ربما كانت مسدودة بالوحل ، وحتى لو انتهى هذا الفرض فإن طرق أبواب الدور فى القرى فى مثل هذه الليالى عمل غير ميسور ، لذلك قررت نهائيا أن أواصل سيرى حتى أصل إلى قريتى .

غير أن الركوبة التى كانت تحت أبى والتى أسوقها أمامى بدا لها أن تعرج إلى شجرة على ناحية من الطريق وتقف تحتها كأنما لتستظل من المطر ، فتبعتها طبعا الدابة الأخرى . فلما صرت وراءها ضربتها لتتحرك غير أنها احتملت أخف الضررين وأضربت عن المشى . وكان المطر تحت الأشجار مضاعف الكمية ، فأحسست أن فم قربة قد انفتح فوق رأسى ، وعند ذلك جن جنونى وصرت أضرب الدابة بكل ما أملك من قوة حتى تحركت وتحركت خلفها .

* * *

لست أدرى ما الذى حدث بعد ذلك . ولماذا أنا هكذا ؟ .

أخذت أنظر حولى وأتفقد الأشياء ،فإذا بكل شىء حولى مرتفع شاهق حتى الدابة التى أركبها .

أحسست فجأة أننى على الأرض ... على أوحال الطريق . فقد أنزلقت ركوبتى فسقطت بى ، ثم استطاعت أن تنهض فى الوقت الذى عجزت أنا فيه عن النهوض ، وأستجمعت حواسى بسرعة فخفت وأنا لا أزال على الأرض أن تسير الدابتان فتضلا منى فى الظلام ، فتحاملت واقفا وأنا أدعوهما للوقوف ، وكان القدر فى صفى فلم تتحرك واحدة منهما .

غير أن شيئا لم يكن فى حسابى ظهر فى اللحظة التى حاولت فيها الوثوب إلى ظهر الركوبة لأستأنف سيرى ، فقد أحسست كأن جسمى محطم ... كأن شيئا قد استنزف قواى ؛ كأننى خارج من معركة الحمى ، ثم أخذت مفاصلى فى الارتعاش فتلفت حولى بحركة تلقائية لأبحث عن شىء .

كانت الطبيعة لم يفارقها غضبها بعد ، وكنت فى هذه اللحظة بين براثنها كقطعة الخشب فى مجرى الشلال . وعرفت ليلتئذ كيف يغرق الناس وهم

على الأرض ، وكيف يجمد البرد أعضاءهم فيموتون ، وذكرت أبى فى مدينة طنطا والمهمة التى سافر من أجلها .. سافر لكى يشترى لنا كسوة الشتاء .. ثم ذكرت أمى وإخوتى الذين ينامون فى دفء الدار تحت غطاء من الصوف وبعد عشاء ساخن ...

ذكرت كل هذا وأنا أرتعد وأتلفت فى كل اتجاه أبحث بالغريزة عن سفينة نجاة .

وفجأة ... وتحت مستوى الطريق رأيت شعاعا من النور يلمع وراء باب فأيقنت أن هناك كوخا يسكنه إنسان . وتذكرت بيت العمدة أعلى بيت فى قريتنا ، لكنى رأيت هذا الكوخ فى هذه اللحظة أعلى منه بكثير ، وسحبت الركوبتين وانحدرت إلى هناك حيث وقفت أنادى .

* * *

وما لبث الباب أن انفتح برفق وحذر وأطل منه وجه رجل عجوز ، وقال بصوت واهن :

ـــ تعال يا من تنادى .. لا أستطيع أن أفتح الباب أكثر حتى لا ينطفئ المصباح .

فقلت له :

ـــ إن معى دابتين .

فناولنى حبلا ، وقال :

ـــ قيدهما به .

ثم دخلت .

لم أحس بالدفء فى حياتى أوضح مما أحسسته فى هذه الليلة . كان



كان فى زاوية الكوخ آثار نار وعلى
الأرض حشية من شوال حشى بالقش

فى زاوية الكوخ آثار نار خابية وعلى الأرض حشية صنعت من شوال ملىء بالقش ، وليس هناك غطاء إلا شال قديم . وفحصنى الشيخ بعينين ضعيفتين ثم تحسس ملابسى ، ثم قال :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله . إخلع كل هذا وإلا مت . وأوقد نارا بما بقى من حطب ، ولفنى فى الشال حتى جفف لى ملابسى على النار ، ثم ألبسنى وصنع لى شايا وشربت منه حتى زالت الرعشة .

عندئذ فقط بدأت أذكر الأشياء بوضوح وبدأت أدرك كل ما حولى ، فعرفت أن هذا الشيخ يقوم فى حراسة حقل من الخضروات كان مليئا بالكرنب والقصب ، وأنه قضى عمره فى الحقول . وسألنى : ألا تزال تحس البرد ؟ فقلت له : لا يا عمى . ثم استدركت : وافرض أننى لا أزال أحس بردا فهل تملك حطبا ؟ فابتسم : نعم إن فوق الكوخ كثيرا من الحطب ، وإذا كان لابد ففى استطاعتى أن أخرج من أسفله أعوادا لم يصل إليها المطر . ثم سكت كأنه يفكر ، ثم استطرد كأنه تذكر . وإذا تعذر علينا ذلك فإننى أفك هذه الحشية . إن فيها قشا يصلح للنار ، أشعله لتدفأ ، وعندما تشرق الشمس فإننا سنجد قشا غيره . وضحك سائلا : هيه ... ألست ترى أن الأمور سهلة ؟ سهلة جدا ؟

فملت عليه وقبلت كتفه ، فكأننى قبلت قطعة من الإيمان ، وكان لابد لى أن أبيت معه فتقاسمنا القش والشال القديم ، لكننى لم أنم طول الليل .

* * *

وما لبث يوم الجمعة أن جاء ، ورجعت إلى محطة التوفيقية بركوبتين لأقابل أبى ، وكان اليوم دافئا غير مطير ، وامتطى كل منا دابته ، وأعطانى أبى

« سبتا » صغيرا كان فيه ملابس لى ظل يحدثنى عنها طول الطريق ، ويصف لى ورقة القرط الصغير الذى اشتراه لأختى .

ثم ما لبثنا أن حاذينا الكوخ فوقفت ، سألنى أبى عن الأمر فسردت عليه وأنا أشير نحو الرجل العائد وهو يحمل فأسا — سردت عليه حوادث ليلتى المعهودة ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، ونزل إليه يحمل لفافة ، وعندما قدم محتوياتها من الملابس للرجل أخذ يتكلم بشكر ودعاء وحياء ودهشة وخجل . كان شحنة من الانفعالات لكن كلها طيب . لكن أبى قال له :

— لقد دفأت ابنى بسقفك ونارك وغطائك وهممت أن تشعل النار فى فراشك لتدفئه ، فلو كنت تملك كما يملك غيرك ما بخلت على أحد .. فلماذا لا تقبل هذه الهدية ؟

فأخذ الشيخ يقلب اللفافة بين يديه ، وعلى شفتيه ابتسامة ردته إلى عهد الصبا .

الليلة الأولى

بدأت حياتى طبيبا فى الأرياف ... فى المركز الاجتماعى لقرية (س) الواقعة بعيدا عن البندر وعن شريط السكة الحديد ، فأتاح لها موقعها عزلة فريدة .

وأحسست بكثير من الغربة فى الليلة الأولى التى نزلت فيها هذه القرية ؛ لأننى ولدت فى المدينة وقضيت طفولتى وصباى وشبابى فى حارات القاهرة ، و لم أر الريف إلا فى الرحلات أو على شاشة السينما . لذلك كله قضيت الليلة الأولى فى حجرة نومى فى المركز مسهدا لا تغمض عينى .. وأستمع بقلب خائف إلى حفيف الأشجار فى الحديقة والملعب ، وأتأمل النور الخفيف الذى يضىء حجرتى وقطع الملابس المعلقة وكأنها أشباح تجمدت ظلالها على الجدران .

وكنت قد تناولت عشاء أحضرته معى كان آخر عهدى بالأيام التى عشتها فى ظلال أسرة ، وعلقت على الحائط صورة تذكارية لأبوى ، وعلى مقربة منها تجاه الشباك آية قرآنية كتبت بخط كبير وضعتها أمى بإطارها وسط ملابسى فى الحقيبة .. وتلفت فى كل مكان شأن الغريب ، وأقفلت باب الحجرة وآويت إلى فراشى ولكننى لم أنم ..

وأخذت ذكريات كثيرة تطوف بخاطرى وأنا فى المكان الجديد ، أهمها .. أن الأمل الأكبر والأمنية العظيمة قد تحققت وصرت طبيبا ... تحققت بالنسبة لأمى ؛ لأنها كانت سيدة كثيرة الأمراض عاشت تحلم بقرب الطبيب وعطفه

وإخلاصه ، فابتهلت إلى الله أن يهبها هذا فى ابنها . فلما دخلت كلية الطب ادعت أن نصف أمراضها قد اختفت ، فلما تخرجت وعينت فى الأرياف بعيدا عنها عادت حالها إلى ما كانت عليه ، وكنت وأنا فى فراشى فى هذه الليلة أحملق فى وحدتى إلى الآية القرآنية المعلقة على الحائط وكنت أذكر دموعها وهى تودعنى .

نعم ... ومن خلال صورتها انبعثت صور أخرى ، تخيلتها لناس لا أعرفهم يرقدون فى الحجرات الريفية الخالية من النوافذ فرارا من طلائع الشتاء ، وعرفت نماذج منهم فى المستشفيات أيام الدارسة ، ثم أخذت أتصور منهم سحنا مختلفة حتى كاد النوم يغلبنى ... بل أظن أننى نمت .. غير أنى حين عدت إلى اليقظة سحبت ساعتى من تحت الوسادة ونظرت فيها . كان الليل لا يزال فى أوله ... فقد كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة إلا بقليل ، ولو أن الأشجار فى الخارج تئز من زمن بعيد كأنه دهر ، فقلت فى نفسى : يا إلهى .. ما أطول الليل فى الريف !!

وجلست فى فراشى أفكر فى شىء أعمله، ثم عدلت وصممت على أن أنام، وما أن استلقيت وكدت أدفئ مكانى حتى راودنى خاطر غريب ما لبثت أن ضحكت منه ، فارتفع صوت ضحكى فى المكان حتى سمعته أذنى ... وقبل أن أتبين أن من المخيف أن يسمع الإنسان صوت نفسه تحقق الخاطر الذى سخرت منه ، فقد سمعت نقرا على الباب الخارجى للجناح الصغير المخصص لى ؛ وكانت تعليمات الممرض الذى قابلنى بطبيعة الناس ألا أفتح بابى إلا لمن أتأكد من شخصيته ، وكانت تعليماته بطبيعة الحال ساذجة مألوفة دفعه إليها التملق أو البساطة ، لكنها تركت فى نفسى مخاوف لم تظهر إلا فى اللحظة

الحاسمة ساعة سمعت نقرات على الباب .

وقررت ألا أرد . إننى مجهد وقادم من سفر وهذه أول ليلة لى ، وليس من المعقول أن يكون الطارق زائر جاء يؤنسنى ، فلذت بالصمت وأنا غير مرتاح الضمير ، وانقطعت الطرقات أو ربما غطى عليها حفيف الشجر . ولم يلبث كل شىء أن عاد إلى الهدوء ورجعت من جديد أحملق فى المكان كأننى أريد أن أعرف حدوده ، ووقف بصرى على الآية القرآنية التى أهدتها إلى أمى .. فقرأتها .. ثم ذكرتها .. ولم أدر لماذا خيل إلى أن الطارق جاء يستنجد بى من أجل أم .. أم قد أصابها أى شىء . ربما كانت فى ولادة عسرة ، أو تزحلقت فسقطت من على السلم ، أو اشتعلت فى ثيابها النار ...

وقبل أن تتوقف خواطرى سمعت النقر فى هذه المرة على الشباك الواقع عند أطراف السرير ، فهتفت بحركة تلقائية سائلا :

ـــ من ؟

فأجابنى صوت غليظ منخفض الدرجة عرفت فيه صوت الخفير ، وقال لى :

ـــ هل يمكن يا دكتور أن تخرج الآن .. لأن ..

فقمت إلى النافذة ووقفت خلفها واستطعت أن أتبين كل ما يقول ، ولم ألبث أن أقتنعت وبعد قليل خرجت إليه .

* * *

كان هناك رجلان بانتظارى يبدو على أحدهما أنه ابن الآخر . وكان الأب ضعيف البصر والابن شديد النحافة يبدو عليه الاضطراب ، وطمأننى الخفير بنظراته فقررت السير معهما ، ولما سألتهما عن المسافة قال الأب إنها قريبة ،

و لم يكن هناك داع للمخاوف لأنني كنت أفتح أول صفحة فى معاملة الناس فى هذه القرية .

وسرنا على الطريق العام تحدنا المبانى يمينا وشمالا ، وينير لنا الطريق نوعا ما نصف قمر يلفه سحاب أبيض .

سار الابن أمامنا ، أما الأب فقد أمسك بيدى وسار إلى جوارى وجعل يتكلم :

قال :

— هل تعرف يا دكتور أن ابنى إبراهيم هذا هو وحيدى .. وأن زوجته المتعسرة فى الولادة بنت أخى ...

فقلت :

— تشرفنا ..

فاستطرد :

— لقد كانت زوجتى تلد بالطريقة التى يبيض بها الدجاج ... بسهولة لا تشعر بها ، أما زوجة إبراهيم فهذه هى ثانى حادثة لها .

ثم خفض الأب صوته حتى لا يسمع ابنه أمامنا ، وقال :

— لقد مات ابنها الأول من عسر الولادة ، ونجت هى بفضل الله ...

و لم أرد عليه ، أحسست أننى سأجتاز الامتحان للمرة الأولى ، وأن مسئولية تنتظرنى قد تكون أكبر من إمكانياتى وإمكانيات الريف . فقلت للأب بعد صمت :

— ومن الذى أشرف على ولادتها أول مرة ؟ .

فأجاب بصوت مرتعش متردد :

ـــ الدكتور ... الذى كان هنا . نعم ... إننى خائف .

فقلت له :

ـــ خائف ؟ . مم تخاف ؟ إذا كان الله والطب فى صفك فلماذا تخاف ؟ .

ومرت فترة صمت كان ابنه يقطع الطريق أمامنا بسرعة قلقة ووقع أقدامه مسموع على الطريق ، والأب يلهث من خلال كلماته ، فقلت بعد ذلك :

ـــ أين الدار ؟

فقال :

ـــ ها هى .. إننا قد وصلنا .

* * *

وهناك فى إحدى القاعات الشتوية رأيت شابة تعانى آلام الولادة وقد رقدت على حصير ، وفى الحجرة مصباح هزيل النور ،وكل شىء فى المكان يوحى بالفاقة . ولما فحصت الموقف أدركت أنها فى خطر ، فقد كانت الوالدة أضعف من المعركة وجلست إلى جانبها أستعين بكل تجاربى ومعلوماتى وأبتهل إلى الله بدعاء أصدق وأخلص من الذى يدعو به زوجها . وأخذ الزمن يمر ولكننا لم نتقدم خطوة إلى الأمام . وأفقت على كلمة وجهتها إلى المرأة التى تحمل المصباح وتقوم على خدمتنا حين قالت :

ـــ والنبى يا دكتور ... إن قامت بالسلامة وجابت ولد لنسميه على اسمك.

وفى هذه اللحظة غمرنى العرق البارد الذى يغمر وجه الوالدة ، لأننى تصورت أى سمعة غير كريمة ستملأ القرية إذا وقع المكروه ، وسألت القدر فى سرى لماذا لم يتأخر حضورى ليلة واحدة .

لكن هذا السؤال لم يحل الموقف ، ورأيت أن الحالة محتاجة إلى قدرة



لقد كانت زوجتى تلد بسهولة ...

بالطريقة التى يبيض بها الدجـاج ..

أعظم من قدرتى تهبط علينا من السماء أو تأتى من طبيب مختص . وكلما انفتح باب القاعة دخل إلى صوت الأب وهو يرتل القرآن بابتهال وترنيم .

ومضى على فى هذا الموقف وقت لم أدر مداه دخل بعده زوج الفتاة بوجه شاحب ولسان متلعثم وقال لى :

ـــ دكتور ... دكتور ... إن ناسا بانتظارك على باب الدار ..

فقلت له :

ـــ ليس هناك ما هو أهم من هذا ... لن أخرج .

فقال والجزع يلون كلماته :

ـــ لا .. يجب أن تخرج أنت لتقول لهم هذا الكلام بلسانك ... لا ... قل لهم أنت .. (اعمل معروف) .

عند ذلك علمت أن الأمر فوق مستوى طاقته وأعظم من خوفه على زوجته وجنينها ، فمسحت عرق بمنديلى وتوجهت نحو باب الدار ورائحة غريبة جديدة على قد ملأت رأسى .

وهناك أيضا رأيت رجلين يبدو على أحدهما الثراء ويبدو على الآخر أنه تابع له ، فقلت مستفهما وبسرعة :

ـــ نعم ؟

فقال الشاب الثرى :

ـــ إننى ابن العمدة .. ونحن نريدك الآن .. حالا .

فسألته برقة :

ـــ حالا ؟ .. حالا حالا ؟ . أنت ترى أيها السيد أننى مع سيدة تلد ... وقد ... آه ..

وهمست فى أذنه بما لو سمعه زوجها لخر مغشيا عليه . فحرك الشاب يده ورفع معصمه ورأيت فى الظلام وهج ساعة معصمه الفسفورية ، وقال بقلق ورجاء لكن بلهجة لا تخلو من التعالى :

ـــ إن أمى .. زوجة العمدة فى حالة إغماء .. أرجوك .. إغماء شديد .. وليس هناك ..آ ..

وقاطعته حتى لا يقول كلمة تسىء إلى الإنسانية،حتى لا يضع مريضا فى كفة أرجح من مريض ، قاطعته قائلا :

ـــ نعم ، أنا أعلم يا سيدى أنه ليس هناك طبيب غيرى فى القرية ولكن ...

فسارع قائلا :

ـــ إن معنا سيارة ، هناك على الطريق العمومى ، ومن الممكن أن تعود سريعا إلى هنا مرة أخرى ..

وعاد الشاب ينظر فى قلق إلى ساعة معصمه والفسفور يلمع فى الظلام . وعندئذ لمع فى رأسى خاطر ، فاستمهلت الشابين ودخلت الدار ، فوجدت الأب وابنه قد جلسا متلاصقين أمام الحجرة التى تلد فيها الزوجة ـــ متلاصقين فى خوف كركاب سفينة تغوص . فهمست لهما قائلا :

ـــ إننى سأعود بسرعة ..

لكننى سمعت كلمة الموافقة من خلال تنهيدة تمثل اليأس .

***

كانت المريضة الثانية ممددة فى سرير ذى ستائر وعند أقدام السرير قعدت جاريتان . وفى الحجرة الفسيحة انتظم أثاث يدل على الرفاهية . وحين رأيت المريضة عرفت أن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من حقنة تنشط القلب فقد كانت

السيدة مفرطة السمنة ، لكننى اختليت بالشاب بعد أن انتحيت به ناحية وهمست له :

ــ هل تحب أمك ؟

فدمعت عيناه وحاول تحريك شفتيه فعجز ، ثم استجمع قواه وقال بعد أن بحث عن ريقه :

ــ جدا .. وأريد أن ترى عروستى لأنها ستزف بعد أيام .

فابتسم قلبى ، وأمسكت كتفه بيدى وقلت له :

ــ لا تخف . سأهنيك فى ليلة الزفاف .. لكن .. هل تمانع أن تقدم شيئا فى سبيل شفاء أمك ؟ .. إننى أحب أمى أكثر منك .

فأخرج من جيبه حافظة النقود وقدمها إلى لآخذ ما أشاء ، فابتسمت ودفعت يده برفق ، ونظرت فى الساعة فإذا هى منتصف الليل ، ثم حملقت فيه بنظرة المنتظر وقلت له :

ــ هل تمانع فى أن تهب الحياة لنفس بشرية يهب الله الحياة لأمك ؟

ففغر فمه مستغربا ، وقال :

ــ لا أمانع .. ولكن كيف أمانع ؟ .

فقلت :

ــ إذن .. فاجعل لله عليك دينا أن تنقل سيارتك هذه إلى مستشفى المدينة تلك الوالدة التى تعانى فى الدار التى كنا فيها ..

فهز رأسه موافقا ..

ولم تمض دقائق حتى كانت المريضة قد استردت وعيها من أول إغماء لحقها ، ورأى الابن من خلال بسمتها له بسمة الدنيا وبسمة عروسه ،

وبعد قليل كانت سيارته تقطع الطريق بأربعة : أنا والسائق والزوج والزوجة ... ووصلنا إلى المدينة بعد ساعة واحدة حيث استطعنا هناك إنقاذ الشابة من ولادة خطرة ..

***

كانت أشجار المركز الاجتماعي فى الليلة الثانية تئز فى الحديقة والملعب ، وكنت نائما وحدى أنظر إلى الآية القرآنية المعلقة على الحائط وأسترجع حوادث الليلة الماضية ... لكن ... لم يكن قلبى فى الليلة الثانية يحس بالخوف .. فلم تترك السعادة فيه موضعا يسكنه الخوف .

ثم التقينا

كنا نذاكر فى حجرة واحدة : أنا ، وأخى . وكنت أتمنى لو أن لنا بيتا واسعا ليفرق الله بينى وبينه ولو فى ساعات العمل ، فقد كان أكبر منى بثلاثة أعوام ، وأغزر منى حيوية وأقوى منى صحة .

وكنا نحن الاثنين على وشك أن نتم مرحلة التعليم الثانوى . وعلى الرغم من أنه يسبقنى بثلاث سنوات فى الميلاد ، لم يكن يسبقنى فى الدراسة إلا بسنة واحدة ، وقد حاول جاهدا وعمل حتى درجة الموت ألا تعثر رجله فى امتحان ما فيقع ، فألحق به . وهنا تستوى السلحفاة والأرنب وتكون مصيبة .. أنا أكون معه فى سنة واحدة ؟ وأنا لا أزال « حتة عيل » وهو رجل كامل الرجولة ، يعمل حسابه من يعرف اسمه ؟

هكذا كان يقول لى دائما ، وكنت أنزوى خائفا منه وأبتهل إلى الله بحرارة أقوى وأنقى وأعمق من حرارة دعائه ، ألا يعثر فيكبو فألحق بـه ، وإلا استحالت عيشتى معه تماما فى بيت واحد . وإذا كانت حياتى معه تسير هكذا منغصة مبلبلة وهو فى وضع يرضاه منى ، فكيف إذن تكون لو وقفنا يوما ما على سلم واحد ؟

على أننى — وإن كنت أحبه — فإننى كنت أراه مثل الإله الذى لا يرضى ، أو الصنم الذى لا يشبع من القرابين . بمجرد أن تقفل علينا حجرة المذاكرة كانت تستحيل إلى حجرة تعذيب ، فإذا ما فتحت كتابى لأبدأ العمل ابتدرنى بلكزة من كوعه قائلا فى صوت هامس :

— يا سلام .. مستعجل أوى .. يعنى ح تبقى أفلاطون أو أرشميدس أو شكسبير ، خليك ذوق والنبى وحس على دمك لما نتكلم شوية .

— حاضر .

أقولها بانكسار شديد ، وأنا لابد كما يلبد الأرنب ، وكنت ميالا إلى الصفرة واسع العينين (أكرت) الشعر ، فحين يرى تضاؤلى وتسليمى وإنصاتى الذى يظهر جليا أنه مطبوع بطابع القهر ، كان يقول :

— اعمل أرنب يا لئيم .. ولما بأه تشتكى لماما أو بابا .. المهم .. اسمع .

وتظهر مزاياه الحية ، وحركته اللولبية وروحه الخفيفة المتطايرة السريعة الانتشار كأنها النوشادر . وحالا .. تشغلنى خفة ظله عن ثقل معاملته ، فأسرع فى الإنصات لما يقول .

***

كان غلاما محبا للمتاعب ..

أقرب الطرق عنده هو الكثير الأوحال شتاء الساطع الشمس صيفا . الخالى من الفوانيس ليلا . عدو نفسه لا يحب الراحة . وكنا — مثلا — نرى قبة مسجد السيدة من نافذة منزلنا فيقول عندما تقع عليها عيناه :

— لو أستطيع أن أجلس فوق هذه القبة مدليا ساقى إلى تحت ، دون أن أتزحلق ؟

ومرة ونحن نلعب خطف عكاز شحاذ ضرير كان يتحسس به الطريق وهو يتكفف الناس ، وطرح بالعكاز فى خرابة مقفلة الباب ، وحرم على أولاد الحارة أن يقودوا خطا الرجل ، ثم لكمه بين كتفيه وجرى ، فإذا الأعمى يجرى وراءه فى الأزقة ، وأنساه حبه للإنتقام تصنعه العمى للتسول ، فضحك

أهل الحى من هذه الحادثة و لم يعودوا يرون الشحاذ بعد هذا اليوم .

مهمل خفيف الظل ، مجازف لا يخاف ، يحب بدينه ومستقبله وتقاليد أهله ، ويختار فى الحب أوعر المسالك وأكثرها أوحالا ومتاعب ، شأنه فى اختيار كل طريق .

— إسمع يا حسنى . أقسم بالله العظيم إذا ما عدلت عن كثرة الشكوى لوالديك لأحرقن جميع كتبك وأتلفن عليك سنتك وأجعلها سوداء . فاهم ؟

— حاضر .

وينسى . ويستأنف الحديث بوجه طلق فى شأن جديد كأنه إنسان آخر :

— أتريد أن تعرف آخر أخبار البنت زنوبة بنت بياع السجاير الذى دكانه على شريط الترام ؟ إن العلاقة بيننا تطورت كثيرا .

فأقول بمداراة :

— والله يا أخى أنا لا أعرفها .

— لئيم ... ومن الغريب أن لؤمك هذا يدخل على أمك وأبيك .. ألا تعرفها حقا ؟ .. ذات العيون الخضراء .. البنت القصيرة ذات الصدر العجيب .

فأقول مغلوبا :

— آه .. تذكرتها . ما لها ؟

— أنت مستعجل ؟ . اطمئن ، سأشرح لك كل ما تحتاج إليه من دروس ، فقط أنصت إلى خمس دقائق . دخلت وراءها حوش بيتهم الواسع وقبلتها فى الظلام .

ثم يحكى ويحكى وأنا أكاد أختنق من الغيظ .



ألا تعرفها حقا !؟ ذات العيون
الخضراء والصدر العجيب ..

ورجوته ذات ليلة أن يعفو عنى .

ـــ اسمع يا أخى . أنت صحيح أكبر منى وأقوى وأعقل وأذكى بكثير . لكن .. أليس حراما أن يضيع بعضنا أوقات بعض ونحن على أبواب الامتحان ؟

واستطردت أتملقه :

ـــ أنت معتمد على ذكائك ، أما أنا فإنسان غيرك ، أنا أطرق فى حديد شبه بارد ، فإذا فترت عن العمل ضاع مجهودى .

ثم برقت عيناى بالدموع ، لقد جربت قبل ذلك أن أجلس بعيدا عنه فى أى مكان ، فأذاقنى عذابا روحيا شديدا طوال الطريق ونحن ذاهبان وعائدان من المدرسة ، كبعض أنواع الحب ، أو (الكيوف) لا قربه يكفى ولا بعده يشفى ، شر على كل حال.

وكأنما أثرت فى آلامى هذه الليلة ، وفى اليوم التالى رأيته ونحن عائدان من المدرسة مشتبكان فى عراك مع أحد أقارب زنوبة : فتى أقوى منه وأضخم وأطول . ولم أكن سائرا مع أخى جنبا إلى جنب ، كان قد سبق بقليل فلما أدركته وجدته مشتبكا فى عراك . كتبه مبعثرة ولكمة تحت إحدى عينيه ، وغريمه مضرج فى دمائه من لكمة سددها أخى إلى أنفه . وكانت المصارعة اليابانية آخر ما تعلمه هذا الأسبوع ، ولذلك استطاع أن يسقط هذا الفحل على الأرض .

وتدخل أولاد الحلال وفصلوا بين الفريقين فى الوقت الذى حمدت فيه الله على أننى وصلت بعد إعلان الهدنة .

وانزوينا معا فى مكان بعيد عن البيت . واتفقنا على أن أسارع أنا عند

دخولى فأعلن الكذبة بالنيابة عنه فى الوقت الذى يكون هو فيه متأخرا فى صعود السلم ، وعلى مسامع (ماما) ألقيت بطريقة آسفة :

ـــ حادثة سخيفة يا ماما حدثت ونحن فى الطريق .. أثناء مرورنا فى شارع درب الجماميز الضيق كانت سيارة شحن محملة بحزم مضغوطة من قصاصات الورق ، وأثناء انحرافها مع أحد المنعطفات اختل توازن إحدى الحزم ...

وسكت . وضممت شفتى فى حزم كما وصف لى الكذاب الكبير .

وخبطت أمى على صدرها صارخة :

ـــ أين أخوك ؟

ـــ لا تجزعى . لم يحدث شىء .

فصرخت :

ـــ أين هو أولا ؟ قل لى .

ـــ إنه يصعد السلم على مهل .

ـــ هل أصيب ؟

ـــ لا . ليس من بالة الورق بل من مؤخرة صندوق العربة ..

وهنا رأيناه مائلا على الكنبة بشكل درامى صابر صامت ، وبمنظر الرجل الذى وقعت عليه كارثة من السماء لا يد له فيها ، فاحتملها بجهاد كما يفعل المؤمنون !!

وعندما اطمأنت الأم إلى أن الله قد لطف فى قضائه ، أخذت تسب أناسا مجهولين ، وتلعن حظه المهبب ، وطريقه الملىء بالعثرات .. دائما .

* * *

ولم يمض أسبوع على هذا الحادث حتى رأيته يميل فى حجرة المذاكرة

ويقول بعينيه كلاما ، كانت عيناه عسليتين جذابتين غزيرتى الأهداب ، تتعارك فى مائهما الجاذبية مع اللؤم والإغراء . وابتسم صامتا .

فقلت لأعجل بإنهاء الموقف :

ـــ بسرعة من فضلك ، لم يبق على امتحانى إلا أسبوعان وعلى امتحانك شهر واحد . أنت فى الثقافة هذا العام . لا تنس .

ـــ لن أضيع وقتك ، هل علمت بحكاية البنت ؟

ـــ زنوبة مرة أخرى ؟

فأجاب باستخفاف وهو يهز كتفيه :

ـــ لا . زنوبة .. زنوبة إيه ؟ .. سيبك . المصريات لا يعرفن الحب .

فخفق قلبى ... وهتفت دون أن أشعر :

ـــ يا نهار أسود ..

ـــ هس . هس . لا تفضحنا .. ألا تسمع وقع خطوات أمك فى الممر ؟ اعقل .

ـــ هل سنختلف من جديد ؟ أنت عارف ؟

ولوح بالانتقام فبلعت ريقى وسألته بهوادة :

ـــ قل أنت .

فأخرج من مخبأ صنعه فى جلد أحد الكتب على هيئة جيب ، أخرج صورة شمسية لفتاة ومعها خطاب مكتوب بلغة لم أستطع فهم عبارة منها .

ثم أخذ يسرد على ملخص القضية ..

إنه تعرف على فتاة بطريقة المراسلة ، إيطالية ، اسمها « ماريانا جيوفانى » بمدينة جنوى ، وبواسطة أحد أبناء الطليان من معارف أصدقائه المقيمين فى

شبرا يكتب ويترجم .

ثم أخرج من مخبأ فى درجه كتيبا صغيرا يعلمه اللغة الإيطالية لكى يكتب بنفسه لهذه الفتاة التى أحبها بالتراسل .

قلت فى نفسى : تلك مصيبة لا يقدر على تدبيرها إلا الله . الله وحده .

وفى الأيام التالية ، كان يقول لى الكلمة بالعربى ثم بالإنجليزى ثم بالفرنساوى ثم بالإيطالى ، وأكتم أنفاسى وأكتم دموعى ، وسهر فى تكبير صورة الحسناء بالفحم وكتابة الرسائل الحارة ليترجمها له صديقه فى اللقاء التالى ، ويمنى نفسه بركوب الباخرة ليلقاها أو الطائرة ليصل إلى جنوى .

وأعلنت النتائج ، ونجحت أنا ، لكننى لم أفرح ، كنت بانتظار النتيجة الأخرى فهى التى ستحدد موقفى ولون أيامى وليالى فى العام القادم .. مصيبة إذا رسب ، نكون معا فى الثقافة ؟ الموت ولا هذا ..

لكن الذى حدث أنه رسب ... فى الدورين معا ... وأصبحنا تلميذين فى سنة دراسية واحدة .

***

وسارت الحياة أثناء الشهور الأولى من العام الجديد بطريقة لا ترضى أحدا . كثر الخلاف والمشاكسة ، وكنت أستحى أن أشكو لأمى أو أبى ، فلما ضاق ذرعى شكوت ، فإذا بكلمة تأنيب لم تكن متوقعة تخرج من فم الأم معناها أننى ابتدأت فى دلال المغرورين . أهذا لأن الحظ خان أخى ؟

وحرمت الشكوى على نفسى منذ هذه الليلة ، وسهر أخى يكتب بالعربى ليترجم بالإيطالى ، وتجددت علاقاته مع البنت زنوبة « كما كان يدعوها » حتى دخلت رجله إلى بيتها .

بطريقة نسائية جرت أمها رجله إلى البيت ، ومشت الأمور فى غموض شامل طول العام حتى أعلنت نتيجة (الثقافة) مرة أخرى ، فإذا بكارثة أكبر من العام الماضى تقع . أنجح أنا .. ويتخلف أخى الكبير .

❊ ❊ ❊

كنت أحس أنه لابد أن يقع شىء ما .

لقد فكرت فيما فكر فيه أخى حسنى ، لكن دوافع الإقناع وقوة العزيمة عندى كانا أقل بكثير منها عند أخى . فكرت فى أن أفر من البيت وأتركه له .

لكن أخى بعد إعلان النتيجة لم يظهر له أثر ، وزعم أبى — ووافقته أمى أول الأمر — أن اختفاءه هزة نفسية لنا يقوّم بها الخبيث الخائب ليغطى آثار الخيبة ، لكن الأيام مرت أسبوعا وراء أسبوع وشهرا بعد شهر ، ولم يعد ...

كنت أنظر إلى أوراقه ورسائل حبه وكتبه وصورة الفحم للفتاة الإيطالية بعين دامعة طوال الشهور . حتى هممت أن أسأل عمن يكتب للفتاة خطابا فى بلادها ويقول لها : لقد ضيعت شابا ، لكننى تذكرت أنه كان ضائعا من كل ناحية .

ثم بلغنا أن زنوبة هى التى مولت أخى حتى يهيئ لنفسه عملا ثم يعود فيتزوج . ثم جاءنا خطاب من السويس بخطه يخبرنا أنا بخير ، وأنه فى رغد من العيش ، ويرجونا ألا نحزن فهو يهيئ لنفسه مستقبلا .

وفى ذات مساء وبعد عامين وجدنا من يقف على بابنا فى ملابس بيضاء مطرزة على هيئة زى رجال البحرية ، واكتشفنا أن الواقف هو أخى ، وأنه التحق بإحدى شركات البواخر .

كان يبدو تحت كبريائه أنه غير سعيد،ولكن كل شيء بالنسبة لمستقبله كان قد تحدد ، وعجيب أن حرارة العاطفة لم تكن عندى شديدة التأجج كأن البعد يدوس جمرات الحب بحذائه الكبير . أو كأن العلاقات من الأشجار التى لا تستغنى عن السقى . وأقام عندنا أياما ورحل .

وسألته ونحن نودعه وكنت إذ ذاك طالبا فى الجامعة :

— هل لا تزال تذكر زنوبة وماريانا ؟

فضحك وقال :

— ألم يتغير معظم ما كان بينى وبينكم ؟ كل شيء يتغير بفعل الزمن ، على أننى كنت يوما ما فى (جنوى) ولم أفكر فى الأمر ، وداعا .

ولم نعد نراه إلا بالقدر الذى يسمح به رسو البواخر . نعم .. وتزوجت زنوبة من شاب غير أخى ، ومزقت أختى الصغيرة صورة ماريانا المرسومة بالفحم ، وأحب أخى على طول تعرجات الشواطئ .

ولما قامت الحرب ، واضطربت الملاحة فى البحر الأبيض اعتبرت السفينة التى أقلع عليها من السفن المفقودة .

ناس يعيشون على الأرض ، وناس يمرون عليها مجرد مرور ، كأنهم ظلال ، أو خيال .

الفهرست

صفحة

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

ـ **لقيطة (ليلة غرام)** : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة ، جائزة وزارة الشئون لأحسن فيلم ، ترجمت إلى فارسية .

ـ **بعد الغروب** : قصة الفقير الموهوب يشق طريقه بالفأس فى الصخور . جائزة وزارة التربية والتعليم .

ـ **شجرة اللبلاب** : قصة عذراء أهدت قلبها لشاب متردد شكاك . ترجمت إلى الإنجليزية .

ـ **شمس الخريف** : ماذا تأخذ منا الحياة ؟ وماذا تعطى ؟ جائزة الدولة فى الأدب .

ـ **غصن الزيتون** : لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى لا تشقينا بالحب مرتين يا إلهى . ترجم إلى الصينية .

ـ **الماضى لا يعود** : (مجموعة أقاصيص)

ـ **من أجل ولدى** : قصة الحب العائلى والمرأة فى صورها الأربع : أمًّا ، وزوجة ، وحبيبة ، وعشيقة .

ـ **ألوان من السعادة** : (مجموعة أقاصيص)

ـ **الوشاح الأبيض** : قصة حب جميل .. ولكن هل حققت الأيام مُنى المحبين ؟

ـ **سكون العاطفة** : (قصة طويلة)

ـ **الضفيرة السوداء** : (مجموعة أقاصيص)

ـ الجنة العذراء : (مجموعة أقاصيص)
ـ أشياء للذكرى : (مجموعة أقاصيص)
ـ خيوط النور : (مجموعة أقاصيص)
ـ حافة الجريمة : (مجموعة أقاصيص)
ـ الباحث عن الحقيقة : (قصة طويلة)
ـ البيت الصامت : (قصة طويلة)
ـ أسطورة من كتاب الحب : (مجموعة أقاصيص)
ـ للزمن بقية : (قصة طويلة)
ـ النافذة الغربية : (مجموعة أقاصيصص)
ـ جوليت فوق سطح القمر : (مجموعة أقاصيص)
ـ قصة لم تتم : (قصة طويلة)
ـ الدموع الخرساء : (مجموعة أقاصيص)
ـ لقاء بين جيلين : (لقاء المؤلف مع عمالقة القصة)
ـ الوجه الآخر : (كاتب القصة الناقد)
ـ غرام حائر : (أول قصة للمؤلف)
ـ حلم آخر الليل : (مجموعة أقاصيص)
ـ عودة الغريب

* * *

رقم الإيداع ٢٠٢١
الترقيم الدولى ٤ ـ ٢٠٤ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش